

القسم الأول

صور من البطولة
في العصر القديم

١١

obeikandi.com

في سهل مجدو

تحتس الثالث

كان من المألوف عند أمراء مصر القديمة أن يهب بعضهم نفسه لخدمة الدين ، فيعتزل الدنيا ، ويزهد في ما يخلعه المُلْكُ عليه من ترف وجاه ، ويتنظم في سلك كهان أحد المعابد ، ليقضى أيامه كاهناً صغيراً كغيره من صغار رجال الدين .

وكان مُحْتَمَس - الذى ارتقى العرش فيما بعد باسم تحتس الثالث - أحد أولئك الأمراء الذين نذروا أنفسهم منذ صباهم للباكر لخدمة المعبود آمون . وكانت هذه الخدمة تعتبر في نظرهم لوناً من ألوان الاستعداد للمُلْكِ إذا سنحت له سانحة ، لأن الملك عندهم كان الكاهن الأعظم ، ولم يكونوا يتصورون ملكاً لا تزينه هذه الصلة بالدين .

ومضى تحتس الصبى يخدم المعبود آمون في رضا واطمئنان ، وكان أبعد شئ عن أن يخطر بباله هو ارتقاؤه ذلك العرش الذى استوى عليه فيما بعد ، لأن أمه إيزيس لم تكن زوجاً رسمية لأبيه تحتس الأول .

وفي يوم من أيام الأعياد ، وبينما هو جالس مع بعض الكهنة في قاعة الأعمدة الشالية بساحة أبيه تحتس الأول في معبد آمون ، إذ ترامت إلى سمعه أصوات الكهنة يرتلون ، وكان بعضهم قد حملوا تمثال آمون وجعلوا يطوفون به في أرجاء المعبد وفقاً للطقوس . وكأنها حلّت روح آمون في التمثال ، فجعل يتحرك ويسير بالكهنة من مكان لمكان كالذى يبحث عن شئ ، فما راعه إلا اتجاه التمثال نحو مجلسه ، ووقوفه أمامه لا يتحول أو يريم ، فوثب من مجلسه فرمى بنفسه عند قدميه ، فمد التمثال يده إليه فأنهضه ، ثم أخذ بيده وسار به حتى وصل إلى « المقعد الملكى » بالمعبد ، فرفعه إليه وأجلسه عليه .

وكان أبوه تحتس الأول ما يزال على عتبة المعبد ، بعد أن أدى عبادته المعتادة لآمون ،

فلم يكد الكهنة يحملون إليه النبا حتى أشرق وجهه ، وأقبل يشتد في خطوه نحو ابنه ، ولم يكد يرى المعبود يباركه حتى تهلل فرحاً ، وأقبل يعفر وجهه بتراب آمون ، ثم ضم ابنه إليه وثبته على العرش ، وخلع عليه ألقاب الملك وشاراته ، وأعلن إلى من حوله أنه يعتزل العرش من تلك اللحظة ، تاركاً إياه لمن اختاره آمون بنفسه ...

وكان تحتمس الأول شيخاً كريماً ، قضى أيامه يرتب شئون الدولة بعدما أصابها من أذى الهكسوس ، فأثار اعتزاله العرش رنة أسى بين رعيته أجمعين ، ولكنهم تفاءلوا جميعاً بمقدم ابنه ، لأن آمون شرفه باختياره ، ولا يختار آمون إلا من يرضى عنه ويتوسم فيه البركة والخير .

أما الفرعون الفتى فكان جميلاً ظاهر الفتوة ، تقياً لا يكاد يقصر في شيء من واجبات العبادة ، ومازال منذ ملك يقيم المعابد ويصلح ما وهى منها ، وهو إلى ذلك ذكى لا يكاد يخفى عليه من أمور الدولة شيء ، محارب لا يشق له في الميادين غبار ، مؤثر لصالح الناس على صالح نفسه حتى لينساها في سبيل الآخرين ! .

ولقد ساس الأمور بدهاء وكرم ، فقد نازعته حتشبسوت - أخته لأبيه - هذا الحق الذي وهبه إياه الإله ، وانضم إليها نفر من أنصارها ، وكاد الأمر ينتهي إلى فتنة ، ولكنه لم يحاربهم ولم يصر على أن يستبد بالأمر ، ونزل عن حقه في العرش لأخته التي كانت في الوقت نفسه زوجته ، ورضى بأن يكون شريكها فيه لا أكثر .

وكانت حتشبسوت امرأة ذكية معجبة بنفسها ، فلم تزل كل يوم تعدو على حق من حقوق تحتمس حتى لم يعد أحد يسمع به إلى جنبها ، وكان في تصرفه هذا صبوراً عاقلاً كريماً ، فقد كان يعرف أنها أسن منه ، وأنها امرأة ، وأن من حقها أن تستمتع بنصيبتها من أبهة الملك قبل أن يتقدم بها الزمان .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فإن الملك القصير الأمد تحتمس الثاني بن تحتمس الأول ، كان في أول الأمر رجلاً ضعيفاً خاملاً لا يكاد أحد يحسب له حساباً ، فلما تحسن حاله بعض الشيء ووجد أخته تستبد بالعرش استفاقت مطامعه ، فمضى يستعين بأبيه تحتمس الأول - وكان قد انفرد بنفسه للعبادة بعد نزوله عن العرش لتحتمس الثالث - ومازال به حتى شد ساعده وطلب له الملك من أخته حتشبسوت وأخيه تحتمس الثالث ، فلم يتردد

تحتمس الثالث في أن يتخلى عنه لأخيه العليل ، بل أفنع أخته وزوجته حتشبسوت بذلك وبهذا خلا العرش لهذا المسكين الضعيف ، فاستمتع به لحظة ثم مضى إلى حيث يمضى كل الناس .

وعاد تحتمس الثالث وحتشبسوت إلى العرش ، فعادت هذه سيرتها الأولى ، واستبدت بكل شيء ، وكان تحتمس يثق في حسن سياستها واقتدارها فترك لها الأمر ، وكان ناصحها ومستشارها «سِنْمُوت» أستاذاً له في الصغر ، فاستحى تحتمس أن ينازع أستاذه الأمر . والحق أن حتشبسوت ورجالها كانوا من خيرة من عرفتهم بلادنا حسن إدارة وقدرة على سياسة الأمور ، ولقد استطاع «جابوسْتَب» وزيرها العظيم ورئيس كهنة آمون ، أن يدبر الأمور أحسن تدبير ، وأن ينهض بكل ما عهد إليه به من تبعات الدولة الجسام .

ثم انقضى ذلك كله : مضت حتشبسوت هي أيضاً إلى حيث يمضى كل الناس وتفرق أنصارها ، وعاد تحتمس الثالث إلى القوة والسلطان بعد اثنتين وعشرين سنة من التضحية والإيثار ، عاد إلى القوة بعد هذا العمر الطويل من الخبرة والتأمل ، عاد كأتم ما يكون الملوك نضجاً والرجال خبرةً والفراعين سياسةً وكياسةً ...

وكانت حتشبسوت قد صرفت همها كله إلى البناء والتعمير والتجميل ، شأنها في ذلك شأن كل امرأة تعتلى العرش : يكون أول ما يشغلها شئون السلم والرخاء ، وقد كان في هذا خير كبير لبلادنا ، لأن الهكسوس كانوا قد خرَّبوها تخريباً شديداً ، وكان لابد من جهد كبير لتعمير البلاد وإعادة الرخاء إلى أرجائها . وكانت حتشبسوت خير من يقوم بهذا ، لأنها كانت سلطانة عظيمة تعشق الجمال والأبهة والزينة والتعمير والرفاهية ، وربما لو قد استبد تحتمس الثالث بالأمر من دونها لما التفت إلى شيء من ذلك ، لأنه كان محارباً لا يعدل بالحرب والميادين شيئاً ...

تولى هذا الفرعون الجليل في وقت كانت ظروف الدولة كلها تتطلب قيامه على العرش فقد كانت أملاك مصر في آسيا تتهددها الأخطار لطول ما تغيب جنودها عنها . وكان أهل آسيا قوما محاربين أشداء لابد من تَوَلِّيهم بالغزوات حتى يخضعوا ويلينوا ، وكانت مصر لاتستطيع أن ترفع يدها عن تلك المناطق الواقعة بين حدودها ونهر الفرات ، فقد كان

أهل هذا الإقليم قبائل لا تألف النظام ولا تعرف السكون ، ولا تزال تتطلع بعين الطامع إلى جنان مصر ورياضها الزاهرة وخيرها الكثير ، شأنها في ذلك شأن النوبيين في الجنوب والليبيين في الغرب ، فكان لا بد لمصر من أن تداوم على حربهم ، وأن تكون على الأبهة للقائهم ، وإلا عدوا عليها وخربوها كما فعل الهكسوس .

في هذه الظروف تولى تحتمس الثالث ... ولم يكن أحد ليتصور أنه قائد ماهر لم تنجب مصر إلى يومه محارباً أمهر منه ولا أقدر ؛ وسنجزىء هنا من الجهاد الرائع الذى سجلته له الأيام بالحديث عن حملته الكبرى لإخضاع الثائرين على مصر بزعامة أمراء بلاد ميتانى شرقى الفرات .

كانت أمة الميتانى حاقدة على مصر متخوفة سلطانها ، وقد بذل فرعون مصر جهده في التودد إلى أهلها محاولاً كسبهم إلى جانبه ، ولكنهم أصروا على الأذى ، ومازالوا يغرون شعوب الشام ويؤلفون بينها حتى استطاعوا تكوين حلف مركزه قادش ، وما أن تم لهم ذلك ، حتى بدأوا يدفعون الحلف على الكيد لمصر وتهديد مصالحها ...

ولم يكن جيش مصر إذ ذاك بالكبير ، لأن إهمال شئون الحرب أيام حتشبسوت هبط به وأشاع الاضطراب في نظامه أعواماً متوالية ، فلما نهض تحتمس للغزو بدأ يعد الجيش وينظمه ، ولم يكن أمامه من الوقت متسع للاستكثار من الجند ، فجعل همه تدريب العشرين ألفاً الذين يتكون منهم جيشه تدريباً كاملاً دقيقاً ، حتى لقد كانوا يشعرون عند خروجهم من مصر أنهم - بفضل النظام وحسن الاستعداد - يعدلون مئات الألوف .

غادر الجيش مصر مع الربيع (١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ ق . م) وأسرع في السير فوصل إلى غزة في تسعة أيام ، ووافق وصوله إليها يوم الذكرى الثانية والعشرين لانتخاب آمون لتحتمس فرعوناً على مصر على النحو الذى وصفناه ، واقتصر فرعون في الاحتفال بهذه الذكرى على حفل بسيط نهض الجيش في صباحه فسار محاذياً ساحل البحر الأبيض المتوسط ، واخترق سهل شازون ، وعسكر في سفح جبال الكزمل بعد أن قطع مسافة طويلة من غير أن يشعر بشيء كثير من الجهد أو التعب ، وذلك بفضل ما أبداه فرعون من القدرة والخبرة والجلد ، فقد كان يسير في مقدمة جيشه كأي واحد من أفرادهم ...

وكان العصاة قد تجمعوا أثناء ذلك يقودهم ملك قادش ، وتحصنوا في حصن مجدو على المنحدر الشمالى لجبال الكرمل ، ولم يلبث فرعون أن استبان أن خصمه ملك قادش خبير بالحرب ذو بصر بثونها ، ولهذا تخير هذه المدينة الحصينة التى تقع بين سلسلتى جبال الكرمل ، وتيمن على الطريق المؤدى من مصر إلى وادى الفرات .

وعقد فرعون مجلساً من كبار ضباطه ، ومكث وإياهم ساعات طويلة يتداولون في أحسن خطة يمكن انتهاجها ، وكانت هناك طرق ثلاث تؤدى إلى هذه المدينة : اثنتان طويلتان مأمونتان ، والأخرى قصيرة مخوفة بشيء من الخطر . ونصح الضباط باتباع إحدى الطريقين الطويلتين التماساً للأمان ، ولكن فرعون كان أبعد منهم بصراً ، فقد كان الوقت أهم من الأمان في نظره في هذه اللحظة ، لأن العدو كان يجمع قواته ، وكانت أعمال تحصينه سائرة في جد ، فاستحسن فرعون أن يسرع فيفجأه على غرة ، ويشنت قواه قبل أن تتجمع وتشتد . وكان القواد المصريون يخشون وثوب العدو على الجيش واعتراضه له في مخارم الجبل الضيقة ، وطالت المناقشات وبدأت أخبار اختلاف الآراء تصل إلى أسماع الجند ، فجعل الكهنة المرافقون للجيش يصلون لآمون أن يلهم فرعون الرأى الصحيح . وإذا بفرعون يخرج إلى جنده فيخاطبهم في حنان الأب الرؤوف ، وحزم القائد المجرب قائلاً: « أى جنودى البواسل ، سأسير أمامكم لأدلكم على الطريق .. فاتبعوا خطاى ولا تخشوا بأساً! » .

وملأت بسالة فرعون قلوب جنده ثقة ، فمضوا في صف طويل يلاحق بعضهم بعضاً مخترقين المضايق والخنائق ، يطوون اليوم واليومين وهم سائرون لا ينال من نفوسهم خوف ولا يدركهم تعب . ولم تكد مقدمة الجيش تصل إلى نهاية الممر الجبلى الضيق ، وتشرف على سهل جزريل حتى لقيها فريق من الأعداء ، ما كاد فرعون يراهم حتى انقض عليهم بحفنة من أبطاله ، فما هى إلا ساعة حتى بددهم وفرقهم بين قتيل وأسير . ثم أفضى إلى السهل فمضى بجيشه على مهل ليتيح لجنده أن يريحوا أجسامهم من وعناء التوقل والانحدار في تلك الجبال القاسية . ولم يكد الليل يتتصف حتى كان يضرب معسكره على مرأى من مجدو، وتحمست نفوس الجند واستعدت للقتال ، فأمرهم فرعون أن يستريحوا ، فمالوا بجنوبهم إلى الأرض ساعاتٍ حتى طلع النهار ...

ومن غرائب المقادير أن ملكَ قادش وأصحابه حسبوا أن فرعون مصر آت إليهم من الطريق الطويلة التي تمر بمدينة طآخ ، فضربوا معسكرهم على هذا الطريق وأقاموا ينتظرونه ، فلو أن فرعون استمع لنصح قواده للقيه الأعداء على مبعده من عاصمة ملكهم وربما حدث مالا محمد عقباه ، فأما وقد سار في الطريق الضيق فقد باغتهم ونزل على مقربة من عاصمتهم وهم يبعدون عنها . ولم يكد النهار يطلع حتى استيقظ فرعون وجنوده كالأسود الضارية ، وإذا فرعون على ظهر جواده يعبىء قواه ويصفها للمعركة الحاسمة ، متنقلاً به من ناحية لناحية وقد ارتفعت هامته وعلت وجهه بشائر النصر ، ومن حوله قواده أسود الوغى يكاد كل منهم يتعجل الوقت شوقاً إلى القتال والتضحية في سبيل وطننا المصرى العزيز ..

وجعل فرعون جيشه جناحين وقلباً ، فكان الجناح الأيمن كتلةً من البواسل يحصنون جانبهم بتل يقع جنوبى غدير كينا ، وكان الجناح الأيسر يسير كتلةً متراسة من المشاة والرماة وراكبى العجلات الحربية ووجهته مجدو على مسافة قصيرة ، أما القلب فكان يقوده فرعون وكانت مهمته شد أزر الجناح الأيسر المهاجم .

ولم يكد أهل مجدو يرون ذلك حتى اندفعوا فى الفجوة بين الجناح الأيسر والقلب ، يريدون أن يفصلوا جناحنا هذا عن بقية الجيش لينفردوا به ، وفاتهم أن فرعون ينتظر هذه الفرصة ، فما هو إلا نفذت طلائعهم فى هذه الفجوة حتى كر عليهم فرعون بعجلته الحربية المتألقة ومن خلفه خيرة جنده فشطروهم شطراً . وباغتهم هذه الحركة وساد صفوفهم الذعر، ومضى فرعون وجنوده يعملون فيهم الحراب والنبال ، ومضت عجالاته - ولا مثيل لها فى الدنيا - تفرى جندهم فرياً، وأخذ من أفلت من القتل منهم يتراجع نحو مجدو ، واستطاع أن يدخل أسوارها منهم من استطاع ، وأقفلت أبواب الحصن ، فأخذ الباقون يتسلقونه على حبال أدلاها لهم مواطنوهم . وكان فى استطاعة جند فرعون أن يقتحموا الحصن فى تلك الساعة ، لولا أن الإجهاد كان قد نال منهم ، فانصرفوا عن ملاحقتهم ، وأخذوا يجمعوا الغنيمة العظيمة التى خلفها المنهزمون فى الميدان .

وخاف فرعون أن يفوت الوقت والجند مشتغل بالأسلاب ، فأصدر أمره بالهجوم على

مجدو ومحاصرتها . وكان كل الملوك الثائرين قد لجأوا إليها ، فاشتدت رغبة فرعون في الاستيلاء عليها للقضاء على أعدائه جملة ، وخاطب جنده قائلاً : « لو مضيتم في الهجوم واستوليتم على هذه المدينة ، لقدمت اليوم قرباناً عظيماً للإله رع ... » وكان في هذا النداء كفاية ، فقد امتلأت النفوس حماسة وفاضت القلوب رغبة في إنفاذ ما أمر فرعون ، فترك الجند ما في أيديهم ، وطوقوا المدينة بسور من الشجر الأخضر ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وعاهدوا فرعون على أن يقوموا على هذا الحصار حتى يستسلم البلد ومن فيه .

وأقام المصريون على الحصار خمسة أسابيع متوالية ، كان يتبادل القيام به فريق منهم بعد فريق ، وأعانهم على الاستمرار فيه ما كانوا يصيرونه من خيرات السهل المحيط بالبلد . أما أهل مجدو فقد أجهدهم الحصار ، ونفذت أقواتهم ، وأخذت الدلائل تدل على أنهم مسلمون بلدهم بين لحظة وأخرى ، ولم يكن يمنعهم من ذلك غير الخوف من انتقام فرعون . فلم يكد فرعون يعلم بذلك حتى عجب منه وقال لرسلمهم : « ننتقم منكم ؟ كيف ؟ إن رحمتنا تسعكم ، لأنكم تصبحون من رعايانا ! » فدهش القوم وقالوا : « فأنتم إذن لستم كأهل آشور ... إذا استسلم لهم بلد خربوه وقتلوا أهله وطمسوا معالمه ؟ » ... فقال فرعون : « لا ... لسنا كأهل آشور ... إنما نحن مصريون فينا عطف ورحمة » .

فلم يكد أهل البلد يتسامعون بذلك حتى طلبوا من وفداهم أن يستغفر فرعون ويرجوه أن يقبل البلد وأهله رعية مخلصه طيبة ، قال رجالهم : « اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة ! » ثم رجوه أن يبقى على حياتهم ، فرد جلالته قائلاً : « سمحت لكم عظمتي أن تبقوا أحياء ... ! » ، فكان ذلك من دلائل رحمة فرعون المظفر ، ولو غيره مكانه ما غفر ولا رحم ، ولَوْضِعَ السيف في الناس والنار في البلد حتى أحالهم وأحالها هشيماً تذروه الرياح ...

ولكن فرحة فرعون لم تتم ! إذ لم يلبث أن تبين أن ملك قادش ليس بين الأسرى ، فقد استطاع أن يفر من البلد الذي أثاره وألقى به في النار ، فرّ تاركاً البلد تنعى من بناها ، ومخلفاً أهلها تحت رحمة العدو ، وقد أسف فرعون لذلك ، لأنه كان يريد أن يقضى على هذا الرجل الذي أثار ذلك الشر كله .

ولم يسمع أحد بمثل الغنائم التي وقعت في أيدي فرعون وجنده بعد هذا الانتصار العظيم في مجدو ، فقد كان منها تسعمائة عجلة حربية ، بينها عجلتا ملكى قادش ومجدو ، وثلاثون ومائتان وألف حصان ، ومائتان من أفخم الزرود ، فيها زرذا الملكين المهزومين ، ومقادير لا تحصى من آنية الذهب والفضة ، وأعداد لا حصر لها من الماشية . وبعد أن استراح الجند قليلاً أمرهم فرعون بأن يحصدوا الحبوب في السهل استعداداً لسير طويل وغزو متتابع ، فاجتمعت لهم بذلك مؤونة كبرى كانت لهم فيما بعد عوناً عظيماً ...

ومضى فرعون يُخضع البلاد بلداً بعد بلد ، ويتلقى طاعة الشعوب شعباً بعد شعب ، حتى دان له سهل الشام كله ، وألقت جبال الكرمل وأهلها بيد الطاعة ، فقبل فرعون منهم ما عرضوا ، وعزل من حكامهم من شك في ولائه لمصر ، وأقام حكاماً جدداً من أنصارا والموالين له ، واستقدم أبناءهم معه إلى مصر ، وعهد إلى المربين في تربيتهم وتنشئتهم ، حتى يشبوا على حب مصر وينموا في أعطاف حضارتها الباهرة ..

وعاد فرعون وجيشه المظفر إلى مصر مع الخريف ، بعد ستة أشهر من الحرب والتضحية في سبيلها ، عاد تحدوه آلاء النصر وترفف فوق رأسه الأعلام ، فلم يبق مصرى لم يخرج لاستقبالهم ، ولم تبق نفس لم تشرئب لتملاً عينيتها من بهجة الجيش المنتصر وجلال فرعون الخالد .

كان ذلك يوماً من أيام الدنيا ، فيه أصبحت مصر سيدة العالم بأسره ، وأصبح فرعونها سيد الأرضين . من ذلك اليوم اطمأن الناس إلى عدلنا ، وسار أمرنا في الناس بالعدل الشامل ..

شاعر الأبطال

هوميروس

لعلك صاحبه مثل زماناً ، ولعلك استمعت إلى قصصه الساحر وشعره البديع ، ولعلك أعجبت بهذا العقل العبقري الجليل الذي ظهر والإنسانية صبية تمشي نحو اليقاع ، يتسم لها الوجود ويستخفها طرب الحياة الدافقة فتغنى بكل ما تجد ، وترسل من نفسها على السجية قصيداً حلواً ساذجاً يصور حلاوة الحياة في ذوقها وسذاجة الإحساس في قلبها: تتغنى بالحرب إذا سارت إلى الحرب ، وتتغنى بالحب إذا أحست لواعج الهوى ، وتنتقل من حال إلى حال والقيثارة بيدها ، تنشد آمالها وآلامها ، فردد الدهر منشداً .

وكان هوميروس قيثارة الإنسانية الصداحة وصدى صوتها المردد ، لم يخطر ببالها خاطر إلا حوَّله إلى نشيد ، ولم يجر عليها حادث إلا استحال في فمه إلى نغم ، ولم تكن الدنيا في ذلك الزمان كدنيانا الراهنة : جهاداً متصللاً في سبيل العيش وحرماً لا تحمد في سبيل البقاء ، بل كانت سهلة ذلولاً ...

كان الإغريق شعباً يتوقد حيوية وتفاؤلاً ، كان شعباً حراً جميلاً - وكل حر جميل - يعيش في أرض جميلة توحى بالحرية والجمال ، هي شبه جزيرة اليونان وآسيا الصغرى وجزائر بحر إيجه . ولم تكن هذه الأرض قد أفقرت على النحو الذي صارت إليه الآن بعد عشرات القرون من الحروب والمصائب ، بل كانت روضاً يانعاً وغابات متراسة الأشجار في تناسق لا تبدعه إلا يد الخالق جل جلاله ، وجبالاً سوامق يتوج الثلج الناصع هاماتها ، فكان الإغريقي يعيش في أعطافها في جو من السحر والفتنة ، وانطبعت صورها في خياله فأصبح لا يرى شيئاً إلا أحاله إلى سحر وجمال وفتنة ، فاتخذ له من الجبال والأنهار والرياض آلهة رسمها رسماً جميلاً خفيفاً ، وابتدع خياله لكل شيء إلهاً أو آلهة : فهذا إله البحر ، وتلك إلهة الصيد، وهذا إله الحب ، وتلك إلهة الجمال .

ولكنه لم يقدر هذه الآلهة ويخضع لها خضوع العابد للوثن ، بل ظل يشعر أنها من خلق خياله ، فهو يُشركها معه في مشاعره وآلامه : وهو غيران منها حيناً ، وهى غيرى منه حيناً ، وهى تميل إلى فريق من الناس على فريق ، بل هى قد تعشق من البشر إنساناً وتمضى تطلبه وقد لا تفوز به ! وهو لهذا قد يغضب على هذه الآلهة ويكفر بها ويناصبها العداة ، ولا يزال ينازعها وتنازعه ، وقد يغلبها ! حتى أصبحنا لا نفرق فيما يروى لنا الإغريق في قصصهم بين إنسان وإله : فهم يزعمون لك أن فلاناً هذا هو ابن الإلهة فلانة ، وأن الإله فلان أبوه من البشر ! .

ذلك كله طريف جميل ، ففيه خفة وفيه دعاة ، ولكنك لا تستطيع أن تأخذه مأخذ الجد الخالص ولا تستطيع صياغته في نثر منطقى جامد ، ولابد لك من شعر طروب تعوضك موسيقاه وأوزانه ما ينقصك من دقة المنطق ، ولا يستطيع أن يفعل هذا كل شاعر ، بل لابد من عبقرية طليقة فياضة ترسل الشعر في يسر كأنها تتنفس . وكانت الحوادث نفسها كفيلاً بأن تخلق الشاعر المجيد وتصل خياله ، فإن حرب طروادة كانت قد ثارت بين الإغريق فشغلت نفوسهم وأذهانهم ، وطال مداها وتعددت أطوارها ، وتناولها القصاص بما قدر عليه خيالهم ، حتى أصبحت أسطورةً فيها من الفن والابتكار أكثر مما فيها من الحق والتاريخ .

وانتهى قصص القصاصين إلى هوميروس هذا ، وكان ذا خيال خصب وشاعرية فياضة تتحول الحياة على لسانه إلى قصيد ، ويتحول القصيد على قيثارته إلى نغم . وكانت الحياة قد حرمتها نعمة البصر ، وعوضته عنها ذلك الخيال الطائف ، فأخذ ينظم قصائد طوالاً يجمع فيها شتات الحوادث في نسق قصصى طريف . وتناول الرواة قصيده ومضوا يرددونه ويضيفون إليه على قدر ما استطاع خيالهم ، حتى تضخم القصيد واختلط فيه كلام هوميروس بكلام غيره ، واجتمع ذلك كله في قصيدتين طويلتين هما « الإلياذة » و« الأوديسا » تُنسبان لهوميروس .. ولا يعلم إلا الله أين كلامه فيهما من كلام غيره ، ولكن أساسهما على كل حال من صوغ خياله ولحن نشيده ، فهو أبو الشعر ورائد القصيد .

فهؤلاء الشعراء كلهم من بنيه وأحفاده ، ليس منهم إلا من أخذ عنه ودرس عليه وغذى

شاعريته من سحر بيانه وفيض عاطفته ورحاب خياله . وهؤلاء الرسامون كلهم عيال عليه وعلى أبطاله ، يأخذون منه ويثبتون على الألواح ، وينقلون عنه وحى الفكر فيسجلونه صوراً ذات ألوان . وهؤلاء الفلاسفة الأول تلاميذه ، على أضوائه كشفوا فلسفاتهم وأفكارهم التي اتخذت الدنيا منها مبادئ للحياة وأنظمة للعيش . وهؤلاء نحن بعد عشرات القرون نروى حديثه ونردد أفكاره ونعيد أشعاره ، فكأنها بنات اليوم أو نظم الأمس وكأنها الحق الذي لا يخلق والصدق الذي لا تنال منه الأيام : تلك هي الإلياذة الخالدة ، في كل سطر منها بطل وفي كل بيت منها بطولة ، وهي في مجموعها ديوان الأبطال الذي لا يمل قراءته من تطلع إلى سماء الأبطال ، فلنلق نظرة فيها علناً نقبس من جمالها شيئاً :

هذا « آخيل » في خبائه معتكفاً مغضباً . لقد غصبه « أجامثون » حبيته الرقيقة « بريسا » . وهؤلاء هم اليونان في طريقهم إلى طروادة ليثأروا من ملكها « بريام » وابنه « باريس » الذي اختطف منهم هيلانة الجميلة ، ولكن الآلهة لا ترضى عنهم ، وترسل إليهم من مياه البحر شراً عاصفاً لأنهم أغضبوا آخيل ! فهل رأيت ألطف من هذا الخيال الأسطوري البديع الذي يخلط الحرب بالحب والآلهة بالناس ، ويشير في النفس صوراً ضاحكة عابسة توظف الخيال وتملأ النفس مرحاً وطرباً ؟

إن الإله « أبولون » يحب آخيل لأنه ابن نيتس الفاتنة التي اختصم فيها إلهان هما : « زيوس » سيد الآلهة و « بوزيدون » إله البحر ، ولم يدركها أحدهما ، وإنما كانت من نصيب « بيليوس » كما سترى في حديث آخيل . إن أبولون يحبه ويعجب به ، وهو لهذا لا يرضى أن يغصبه البشر حبيته بريسا ، وينزل عن عرش ألوهيته ويمضى إلى المعركة الجارية بين البشر مناصراً لآخيل معيناً له على إدراك صاحبه ! ولم يقف « بوزيدون » ساكناً فإن آخيل عزيز عليه لأنه ابن نيتس التي طالما أعجب بها ، وهو يكره ذلك الغاصب أجامثون لأنه لم يستح رغم تقدم سنه أن يغضب فتى يافعاً مثل آخيل فتاة يافعة مثل بريسا وهو لهذا يثير البحر على الإغريق ليمنعهم من أن تطأ أقدامهم أرض آسيا الصغرى وفيها طروادة ، بلد هيلانة الجميلة . ثم يمضى إلى الآلهة فيجعلها تعلن أن أول من يمس الأرض من الإغريق ميت لا محالة !

وإذ هم في سفنهم يضطربون خوفاً ، وكل منهم يخشى أن يخطو إلى الأرض المحرمة

فيهلك ، إذا بفتى جرىء القلب منهم يرضى أن يبذل نفسه ضحية كريمة حتى لا تقول
الآلهة إن اليونان ليس فيهم فتى واحد سهم يحمل رأسه على كفه ! إنه ليخطو إلى الأرض ،
فإذا سهم رائش يستقر في أحشائه ، فيسقط هاتفاً باسماً ، ولا يكاد هتافه يتردد حتى
يتشجع الإغريق فينحدرون من السفن كالسهم المارقة أو السيول الجارفة : وتعجز الآلهة
عن ردهم ، ويمضى الإغريق خفافاً سراعاً حتى يدركوا أسوار طروادة . وهناك تبدأ
الحوادث التي تقص الإلياذة علينا من أحداثها ما وقع في الخمسين يوماً الأخيرة منها ،
تقصها في بضعة آلاف من أبيات الشعر الجميل !

هل يوفق الإغريق إلى النصر بغير آخيل ؟ إن الأيام لتطول بهم ، وإن الهزائم لتتردد في
صفوفهم ، وإن أبطالهم ليتساقطون صرعى حتى تفرغ الآلهة وتخشى عليهم العاقبة ، لأن
الآلهة تحب الإغريق رغم غيرتها منهم ، وهذا هو موضع الطرافة في هذه الآلهة الإغريقية ،
فهى إغريقية دماً وروحاً ، وهى لا ترضى أن ينهزم الإغريق في حرب ولو كانوا هم العداة
الغاصيين ، وهى لا ترضى من آخيل هذا الاستمرار في الغضب وتأبى عليه ترك مواطنيه في
قبضة الردى من أجل امرأة ، وهى لهذا تهرع إليه ترجوه أن ينهض للحرب فيأبى ، فتوحى
إلى صاحبه « بتركلِس » أعز أصدقائه ليستعطفه ويرجوه . ولكنه يصر على الإباء ، فإذا
يش منه سأله درعه لكى يخرج بها (أى بتركلس) إلى المعركة حتى يقع الخوف في قلوب
الأعداء ، فيرضى . ويخرج بتركلس ويصول ويجول ، ثم يبرز له « هكتور » سيد
أبطال طروادة ، فلا يزال يقاتله حتى يصيبه في مقتل ويخر بتركلس ميتاً .

أحب أن تصغى معى إلى أناشيد هوميروس ، أحب أن تشاركه أحزانه على بتركلس
العزير ، إنه يرسلها على السنة الحور ، ويصورها بدموع الواهات الباقيات ، فلا يكاد آخيل
يسمع النشيد حتى يمتلىء قلبه حزناً على صاحبه ، وتثور نفسه حمية له ، فينتضى سلاحه
ويمضى إلى الميدان معجلاً ، وهناك ترجح الكفة وترضى الآلهة عن اليونان ، ويعود النصر
العزير . فلا يلبث الطرواديون أن يعودوا إلى مدينتهم ويحتجزوا بها ، ثم يشتد بهم الأمر حتى
كادوا يسلموا أنفسهم لأعدائهم .

ولكن بطلهم باريس يعرف سراً لا يعرفه غيره ، إنه يعرف أن آخيل محصن من الموت
ممتنع على الفناء ، لأن أمه غمسته وهو حدث في ماء الخلود ، ولكنها نسيت منه جزءاً لم

يمسسه هذا الماء وهو عَقْبُهُ ، ذلك أنها أمسكته منه حين أدلته في الماء ، فأصبح عقبه المنفذ الوحيد الذى يصيبه منه الموت . إن باريس ليعرف ذلك ، وإنه ليتحرق شوقاً للأخذ بثأر صديقه هكتور الذى أزداه آخيل ميتاً ، فيسدد سهمه المسموم إلى عقب آخيل ، ويفوقه ويشده ثم يرسله يحمل الموت الزؤام إليه ، وهذا آخيل يسقط صريعاً يشخب دمه ، وتنفرد نفسه وتذوب حياته ، ولكنه يتسم للموت ويلقاه راضياً سعيداً ، وهؤلاء حوريات الخلد يستقبلنه بأناشيد عذبة فيها فرح وفيها حزن ، إنهن سعيدات بلقاء هذا البطل الكريم ، ولكنهن حزينات لمصاب قومه فيه .

وكان هوميروس يعبر عن شعور الإغريق عامة بفرق من المنشدات ، هن في رأيه أهل اليونان ، فأناشيد المنشدات هى صوت اليونان إذن ، وحزنها أو فرحها هو شعور الإغريق إزاء هذه الكارثة . وعن أشعار هيرميروس هذه أخذ كتاب اليونان أسلوبهم الطريف هذا في التعبير عن رأى الجماعة أو عن رأى الكاتب نفسه في أحيان كثيرة ، فالجوقة عند سُوفوكليس أو يُوريبيديس أو أريستوفانيس ما هى إلا شعب اليونان نفسه .

هؤلاء هم الإغريق يطوون الحسرة بين ضلوعهم على فقدهم آخيل رغم ما وفقوا إليه من نصر على الطرواديين ، وهامهم ينشرون الأشرع ، ويعودون إلى بلادهم ، وإن نفوسهم لتتفرق حشرات .

أى سحر في هذه القطعة الفريدة التى يبلى الزمان ولا تبلى ! أى حديث حلو عذب تسمعه في أطوائها على السنة الأبطال والحكماء والزعماء !

لو تلو بضع صفحات من هذه الإلياذة أو من أختها الأوديسا ، لعرفت أى عقل هذا الذى صاغها ونفت فيها الخلود ، ولتبينت أنه لا يمكن أن يكون عقلاً واحداً بل هى عقول ، إنهم جيل من الشعراء ، وإنه صوت شعب كامل لا صوت رجل واحد ، إنه شعب مصوّر وعالم حى متحرك يفيض بالحياة والنشاط والقوة والتوفز . وهذا رأى أغلب دارسى الآداب اليونانية :

إن هوميروس لم يكن رجلاً واحداً ، بل هو عَلمٌ على عبقرية اليونان الشعرية . لقد نظم مئات من شعراء اليونان أشعارهم ونسبوا إلى هذا الاسم ، إنها عبقرية شعب اجتمعت في اسم فرد ، إنه جهد شعراء أبطال انتهى إلى رمز شعري واحد وتلك صفة تكاد تصنف بها

الأشعار الشعبية عند شعوب الأرض قاطبة : لا تستطيع أن تنسب قصيدة « زولان » ولا قصيدة « السيد » ولا ملحمة « بيوولف » ولا أشعار أبي زيد الهلالي أو قصة الظاهر بيبرس إلى مؤلف واحد ، لأن هذه القصائد والأقاصيص كلها إن هي إلا أصوات الشعوب تعبر به عن نفسها تعبيراً صادقاً ساذجاً يفيض جِداً وجمالاً .

ثم تأتي الأوديسا ، هذه القصة الساحرة التي لا ينساها فتى يقرؤها ، ولا تنساها فتاة تظهر عليها ، إنها قصة أوديسيوس (أو أليسيس) ومغامراته وحبيبته بنيلوبى : لقد ذهب أوديسيوس مع غيره من أبطال الإغريق واشترك في حرب طروادة ، ولكن سفينته ضلت سبيلها أثناء العودة واستبدت بها الأمواج فمضت به إلى حيث لم يمض أحد ، وألقت به الأمواج على شواطئ مخوفة تغص بالمهالك ، ولكن البطل يصارع الأبطال والوحوش والساحرات ، ويأتى من صور البطولة ما يثير الخيال ويبعث الإلهام ، وتنقضى الأعوام وخطيبته بنلوبى تنتظره أمينة على عهده وفيه له . وإن المعجبين والمحبين والراغبين في زواجها ليرتددون على دارها عشرات يزاحم بعضهم بعضاً ، وهى تمنهم وتعدهم بأن تنظر في أمرهم حينما تخلص من نسجها .

وتقضى اليوم عاكفة على خيوطها وإبرتها ، فإذا أقبل الليل حلت ما عقدته وبدأت في اليوم التالى من جديد ! .. وهكذا حتى يبأس الطامعون وينفذ صبرهم من هذا النسج الذى لا يتم ! .. ويشتد بهم الغضب ويأخذون يأترون بالفتاة وينصبون لها الشباك ؛ فإذا أشرفوا على التنفيذ وحاق الخطر بالحبيبة ، أقبل أوديسيوس بعد الغياب الطويل ، واشتبك مع المتنافسين وأصلاهم عذاباً أليماً ، وختمت القصة بين أفراح الحب وأفراح الناس .

هذه نظرة عابر ، هذه خطوة سائر ، لا تمس حقيقة هذا القصص البديع إلا مساً رقيقاً ، ولا تصور خيال القطعتين إلا تصويراً بسيطاً سطحياً ، فما بالك بالأصل ؟

ألك في قراءة حلوة تملوك رجولة وتملأ خيالك شعراً ؟ ألك في ساعات تقضيها مع ناس كأنهم الآلهة ، وآلهة كأنهم الناس ؟ ألك في أستاذ يلقي إليك قصصاً حسناً وكلاماً رائعاً وعبراً صادقة ؟ ألك في عالم من الأبطال ودنيا من الرجال ؟ ..

عليك إذن بهوميروس ، عليك بدواوينه الزاخرة وأشعاره الجميلة ، عليك بأبطاله الخالدين وآلهته العظام ، عليك بالإلياذة ثم عليك بالأوديسا ...

بطل من عالم الأساطير

آخيل

كانت ثيتس أمه من الآلهة ، وكان أبوه من الناس ، وإنما تزوجت أمه رجلاً لأن زيوس سيد الآلهة وبُورِيدُون إله البحر اختصها فيها ، وتقدم كل منهما يطلب يدها ، وإنما لفي هذا إذ بلغها أن ابنها سيكون خيراً من أبيه وأعظم ، فكف الإلهان عن السعى غيرة من هذا الابن الخطير ، ثم تقدم لها بيليوس فرضيت به كارهة ، فكان لها منه هذا البطل العظيم «آخيل» .. تأنقت الآلهة في تصويره فأكمل على يديها صبيّاً بارع الحسن بادي الفتنة ، أدرك الإنسانية في فجرها فأصاب نصيباً وافراً من الفطرة الهادية والطبيعة الصافية ، وأدركته عيون الإلهات فأحبينه واختصمن فيه ، طلبته هيرا واشتهته أثينا ، ولكنه كان رجلاً إغريقياً ، والإغريقي يعرف الحب ويميل إليه ولكنه لا يسلمه قياده ، ويرى أن الرجولة لا تتم لفتى إذا هو استدلته عيون المها ، أو بكت عيناه من فرط الصباة ! . وليست النساء في نظره مما يؤبه له ويجهّد في سبيله ، فانصرف آخيل عن الهوى وتعلق بالمجد والحرب ، وكانت أمه قد جلبت له شيرُون ليعلمه الحرب ، وفُونِكْس ليلقنه البلاغة ، فأدرك من الفنين أوفر نصيب .

خيرته أمه بين أن ينعم بحياة طويلة مطمئنة ، أو يمجا حياة قصيرة تفيض بالمجد والفخر، فصاح : « بل المجد يا أماه ! » .

فإذا أيقع وأدرك أشده ، خافت عليه أمه سورة شبابه - ولعلها خافت عليه أوار الحرب حين قامت الخصومة بين الإغريق والطوراديين - فحملته إلى سيرُوس وخبأته بين فتيات ملك نيكوميد ، فحفي فيهن حتى لم تكن العين لتستطيع أن تميزه منهن لفرط حسنه ، ثم مر بالجزيرة أوديسيوس في إحدى رحلاته باحثاً عنه ، وارتأى أن يقدم لفتيات ملك نيكوميد

هدايا من الجوهر ، فألقى هن بعضها وفيها سيف ، فلم يكثر أخيل للجواهر ، وإنما أسرع فأخذ السيف ، فعرفه أوديسيوس ، واستصحبه معه إلى الحرب .

في تلك الأيام كانت المقادير تؤذن بلاد اليونان بشر مستطير ، كانت الآلهة قد سخطت على البشر لطول سكونهم ، واستكثرت عليهم العيش الهادئ في ظلال السلم الوارف ، وأدركها الحسد للناس - شأنها معهم بين الحين والحين - فأحبت أن ترميهم ببليّة تحيل أمنهم خوفاً وسلمهم حرباً ، وأخذت تتدبر في سبيل توقع به الحرب بين الناس حتى اهتدت إلى ما كانت تريد .

كانت هيلانة ابنة زيوس سيد الآلهة تختار لنفسها زوجاً ، وكانت قد شدت رحالها إلى بلاد الإغريق لبعض أمرها ، فخرج لها ملوك الإغريق يطلبون ودها ، فاخترت من بينهم ملكاً اسمه مينيلوس ، فأثار هذا فتى من خطابها اسمه باريس ، وكان أميراً على طروادة في آسيا الصغرى ، وكان راعياً مشهوداً له بالحسن والفتنة ، وكانت الإلهة أفروديت تميل إليه ، لأنه حكم لها بالتفرد في دولة الحسن حين اختصمت إليه هي وأثينا وهيرا ، فقضى لها ! وكانت قد وعدته أجمل بنات زمانه جزاءً له على هذا الإنصاف ، فلما وجد هيلانة الفاتنة تصير إلى مينيلوس ، أدركه الغضب ، وانطلق إلى أفروديت وسألها أن تحقق له ما وعدت ، فكانت عند حسن ظنه ، ومضت فأوحت إلى مينيلوس أن يستضيف باريس في قصره ففعل . وإذ قد نزل باريس في قرب هيلانة فقد سعى إليها ، وكانت أفروديت قد يسرت له الأمر فلم يكن أسهل عليه من إغرائها والفرار بها إلى بلده .

وكان هذا مثار الحرب : هاج مينيلوس ، وغضب له أخوه أجاممّنون أكبر ملوك الإغريق وثار للأمر ملوك الإغريق واحداً واحداً ، وأجمعوا أمرهم على الحرب ومعاينة باريس وتخريب طروادة ، ونُقح في النفير أن قامت الحرب ! وتهافت الفتيان إلى ميدان الشرف ، وانطلق أوديسيوس ينادى الشبان ويتخيرهم ويجمعهم ، حتى عثر بأخيل بين بنات نيكوميدي كما أسلفنا .

دارت رحى الحرب عشر سنين ، كان أخيل فيها بطلاً مظفراً ومحارباً باسلاً . كان عميد الإغريق وموثل اليونان ، يرمون له به كل صعب عسير فلا يلبث أن يسهل ويهون بين يديه

وتحدث الناس بأخبار بلاته وأنبأ شجاعته ، حتى صار معبود الشباب المتوفز وحامل لواء النصر ، لا يكاد يخذل أبداً . واستبسل الطرواديون أمام اليونان ، وكان يقودهم هكتور ابن ملكها ، وانقسمت الآلهة شيعتين : شيعه مع الطرواديين وشيعه مع الإغريق . كانت هيرا وبوزيدون وأثينا توالى حزب أزنميس إله الصيد ، لأن أجامنون أصاب غزلاً من غزلانها فى طرواده ، وكانت قبل أن تنضم إلى الطرواديين قد سعت لتتقم لنفسها : فقطعت الريح عن سفن الإغريق ، فوقفت سفنهم على العُباب لا تستطيع حراكاً ، فمضوا يترضونها ويقدمون لها الضحايا حتى يعطفوا قلبها عليهم ، فأطلقت لهم الريح ، ولكن نفسها كانت ما تزال غضبي ، فمضت تكمل انتقامها فى صف الطرواديين .

وكانت لأجامنون قينه اسمها كريسا ، ولأخيل صاحبة اسمها بريسا ، فإذا كانت الحرب فى عنفوانها غضب زيوس سيد الآلهة على أجامنون غضباً شديداً ، لأنه أتى من الأمر ما ساءه وخالف مشيئته وجر على قومه المصائب ، بما أبدى من العتاد ، فلم يكن بد لأجامنون من أن يقدم لسيد الآلهة قرباناً ليرضى عنه ويحول بينه وبين الانضمام إلى صف الطرواديين . وكان القربان قينه كريسا ، فلما رضى زيوس عنه ، التفت أجامنون يبحث لنفسه عن قينه بدل التى ضيعها ، فلم يجد أجمل من بريسا صاحبة أخيل ، وكان مولعاً بها منذ حين ويشتهى أن تكون له ، وكان أخيل فى حسابه شاباً فتاناً للنساء لا يعنيه أن يفقد واحده ، فغصبه إياها . وثار أخيل وتوعد ، ولكن أثينا رجته أن يملك نفسه ، وألا يسترسل مع الغضب ، لأن قومه فى حرب ولا يليق به أن يخاصم قومه فى مثل هذا الوقت لسبب صغير ، فسكت كارهاً ، ولكنه أقسم لا يشترك فى الحرب بعد هذا أبداً .

اشتد الأمر على الإغريق بعد أن قعد عنهم أخيل ، وغلبهم الطرواديون على أمرهم حتى كادت تذهب ريجهم ، وكان اعتزال أخيل قد زاد فى قوة هكتور وباريس ، فأصابا من الإغريق كل مُصاب ، وأمعنا فى التنكيل بهم حتى ثارت حليفتهم أثينا ، فانطلقت إلى زيوس ضارعة إليه أن يقف هذه الحرب ويرحم الإغريق ، وأنكرت أن ينزل بهم هذا البلاء كله بسبب حماقة ارتكبتها أجامنون .

وقد كان زيوس خليقاً بأن يرد على أجامنون جاريته ، ويأمره بأن يرد بريسا إلى أخيل

حتى ترضى نفسه ويعود للحرب وترجح كفة الإغريق من جديد ، ولكنه كان - فيما يبدو - سعيداً يتسلى بتأمل الحرب وأحداثها ، فلم يشأ أن يرد الجارية ، ولكنه قبل أن يوقف الحرب إذا استطاع محاربو الإغريق البروز لهكتور في الميدان ، واشترط أن يدوم ذلك حتى يغلبه واحد منهم ! وكان يعرف أن هكتور لا يكاد يُغلب ، ولهذا أحب أن يشيع لذة الانتقام من الإغريق في نفسه بروية مصارع أبطالهم . وأخذ شباب الإغريق يخرجون لهكتور ، فلا يكاد أحدهم يستقيم أمامه حتى يرديه ، ولو لم يدركهم أريس إله الحرب برحمة لأوردتهم الطراوديون موارد الهلاك .

عقدت الآلهة مجلساً وعقد الإغريق مجلساً ، فأما الآلهة فقد طلب إليهم رئيسهم زيوس أن يلزموا الحيدة فلا ينحازوا لأحد من الفريقين ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يطيل بلاء الإغريق ، وأن يتلذذ بهزائمهم ، وطلبت أثينا أن يسمح لها بأن تعين الإغريق برأيها ، فسمح لها . وأما الإغريق فقد قرروا أن يندبوا من بينهم وفداً ليرجو آخيل أن يعود إلى الحرب ، وذهب الوفد إلى آخيل وعلى رأسه أستاذه فونكس ، وكان آخيل منفرداً بنفسه في خباته منصرفاً إلى اللهو والشراب والموسيقى ، وقد اعتزلت لاعتزاله فئة من الجند كانت تحبه وتحارب من أجله . وخاطب فونكس آخيل فيما جاء له فرد على أستاذه رداً رقيقاً وأعاد الوفد بإحسان ، ولكنه لم يجبه إلى رجائه .

عاد الوفد خائب المسعى ، فعادت الحرب إلى سابق عهدها ، وتوالت الهزائم على الإغريق حتى ريعت هيرا لمصاهبهم ، وانطلقت إلى زيوس فعاتبته في هذا عتاباً شديداً ، وطلبت إليه أن تنزل الميدان ، وأن تحارب مع الإغريق وأن تنفعهم بعقلها ورأيها ، فلم يأذن لها . فلما رأته مصراً على عناده ، سعت بالحيلة حتى تصرفه عن تتبع الحرب وتصريفها كيف شاء ، وكان على عِظَم مكانته أميل إلى الشرِّ يودُّ لو استمرت الحرب بين الناس دهرًا ، فحسبت هيرا أن إبعاده عن الحرب يسكن أوارها ، ولجأت إلى إله النوم ، فأعارها شملته ، فأرسلتها على زيوس ، فنام نوماً عميقاً ، ثم أسرع إلى الإغريق فشدت عزمهم ، فعاد النصر إلى جانبهم حتى لقد أصابوا هكتور فجرحوه جرحاً بليغاً .

وكان لآخيل صديق يحبه ويدنيه من نفسه اسمه بترُكلِس ، وكان بطلاً في قومه محبباً إليهم وله رأى في مجامعهم ، وكانت الحسرة تأكل قلبه لما أصاب قومه ، فانطلق إلى آخيل

يرجوه أن ينهض لعونهم ، فقد نزلت بهم الهزيمة وليس لهم غيره يقبل عثرتهم ويغسل عارهم ، فأبى آخيل ، فرجاه بتركلس أن يأذن له في أن يستعير درعه ويركب عربته ويصطحب رجاله إلى الميدان ، علّ هذا يخلع عليه بعض شجاعة آخيل فيقيم أمر الإغريق فقبل آخيل ، فانطلق بتركلس في هذه الهيئة وهذا السلاح يحوطه هذا الجمع العزيز من الأنصار ، فأثار الحماسة في نفوس الإغريق ، فتدفقوا حتى كادوا يقضون على الطرواديين . واستيقظ زيوس ، فلم يكذب يرى ذلك حتى ملأت الحفيظة نفسه وخاف أن ينتهي الأمر بنصر الإغريق ، فبعث أحد أتباعه ليرد بتركلس عما كان ماضياً فيه ، فلم يكثر بتركلس لتابع زيوس وضربه فأماته ، فغضب زيوس ، وعاقب بتركلس على هذا بأن نزع عنه سلاحه وهو في الميدان ، فبدأ أعزل ، فأسرع إليه هكتور فأصابه .

هنالك ثار آخيل ، وكان بتركلس عزيزاً عليه أثراً عنده : كانا رفيقاً صبا ونديمي شراب ، فوقع موته من نفس آخيل موقعاً شديداً ، وأقسم لينتقم من له ، ونهض يستعد للحرب ، وقد نسي ما بينه وبين أجامنون من خصومة . ذهب يلتمس سلاحه فلم يجده ، لأن بتركلس كان قد ذهب به ونزعه زيوس عنه ، فطفق يبكي ، إذ كان لا يجد سلاحاً يليق به ، وسمعت أمه بكاءه - وكانت في مقامها بقاع النهر ! - فأقبلت تسعى إليه ؛ فسألها أن تلتبس له سلاحاً ، فأسرعت إلى إله النار فصنع لها درعاً عجيبية ، وحملتها إلى آخيل فأدعها ومضى إلى الحرب مسرعاً .

نسى آخيل خصومته مع أجامنون في سبيل صديقه ، فأكبر فيه أجامنون هذه الرجولة ، وذهب إليه يصافحه فقبل آخيل صلحه ، وعادت الصحبة بينهما إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، واستقر رأيه على الحرب في صفوفهم من جديد ، وفرح به قومه فدعوه إلى وليمة طيبة أقاموها احتفالاً بمقدمه ، فأقسم لا يأكل ولا يغتسل حتى يمحو عار صديقه ، فما زالوا به حتى أقبل فأكل شيئاً من الطعام ، ثم قام فانطلق إلى الحرب ثائراً يتوفز إلى النزال توفزاً .

ريع الطرواديين لهذا واضطرب أمرهم ، وأشفق زيوس عليهم وخاف أن تدركهم الهزيمة بعد أن ردها عنهم زماناً طويلاً ، ورأى أنهم أمام خصم لا قبل لهم بمنازلته ، فأذن للآلهة أن تعود إلى الاشتراك مع الناس في الحرب ، وهو إنما فعل ذلك حتى لا يجد على نفسه

حرجًا من أن يعين الطرواديين برأيه ؛ وهكذا يعبث سيد الآلهة ، ويحير الناس والآلهة معه ! وتلاحم الفريقان وهمى الوطيس ودارت على ساقها الحرب ، وتهاوى القتلى ، حتى الآلهة لم تسلم من أن يكون منها جر حى .. برزت أثينا لأريس إله الحرب فصرعته ! - وتلك سخريّة طريفة من خيال الإغريق أن يجعلوا إلهة مدينتهم تغلب إله الحرب في الدنيا جميعاً - وأدركته أفروديت لتنجو به مخافة أن تقضى أثينا عليه ، وبرزت هيرا لأرتميس إلهة الصيد فنزعت عنها قوسها ، فأسقط في يد الإلهة المسكينة ومضت تستعطف !

وتقدم أخيل بجنوده حتى أشرف على أبواب طروادة ، وشدد الهجوم وتفانى جنوده في الحرب حتى كاد يقضى على جندها المحاربين خارج الأسوار ، لولا أن سارع ملكها الشيخ بزيّام ، فأمر بالأبواب ففتحت حتى يدخل المحاربون ويطمثنوا داخل الأسوار . وفتحت الأبواب فتسارع إليها الجند إلا هكتور ، فإنه أبى أن يفر منهزماً ، وأما باريس فقد أسرع فاعتلى السور وتناول نشابه وجعل يتصيد جند العدو ، وكان رامياً ماهراً لا يخطيء الهدف ، فجعل يتصيد كماة الإغريق بسهامه ، وهو آمن بأعلى السور .

وأثار ذلك نفس أخيل ، وود لو قضى على باريس هذا وأراح الإغريق منه ، فأسرع صارخاً مرعداً ، فلما اقترب من هكتور خارج السور ، أدرك الخوف هكتور وتمشت في نفسه الرعدة ، وخشى أن يلقي أخيل ففر أمامه منهزماً . وأقبل زيوس يعينه فأبت عليه أثينا ذلك ، واشتد الأمر بهكتور فأصابه أخيل في مقتل ، فارتدى على الأرض ، فلما كادت روحه تفارق جسده ، رجا أجيل ألا يمثل بجثته ! . وأنى لأخيل أن يجيب هذا الرجاء ، إنه موتور من هكتور يتمنى أن يمثل به أشنع تمثيل ، وأن ينتقم منه أشد الانتقام ، فربط هكتور إلى عجلته وانطلق بجثته يسحبها على الأرض سحباً ..

وشهد بريام هذا - وكان ملك طروادة ووالد هكتور - فأكلت الحسرة فؤاده ، وأسرع إلى أخيل والدمع يجري على خديه يستحلفه أن يرد عليه ولده . ورق أخيل لرجاء بريام ، فقد كان الرجل يبكي بكاءً مرّاً ، فأعطاه جثة ابنه . وعاد بريام إلى قومه محزوناً أسفاً ، يندب ابنه البطل الشهيد بعبارات لا يملك من يطالعها عند هوميروس إلا أن يفيض قلبه بالحزن ، فقد عرف أبو الشعراء كيف يصور حسرات والد تاكل فقد ابنه وورثه في شرخ الشباب

وعنفوان الفتوة . وقد بلغ من تأثر الناس ببيكاء بريام أن أخيل كاد ينسى مصابه في صاحبه بتروكلس ومضى يبكي هكتور ويأسف على ما صنع به ! ومضى يرثيه ويشيد بشجاعته كأنهما لم يكونا إلى الأمس القريب عدوين تتأجج بينهما الخصومة ، وهكذا الأبطال أبداً : لا يكاد عداؤهم يصرفهم عن إعجاب بعضهم ببعض ..

وقد كان هكتور - كغيره من أبطال الإلياذة - جديراً بكل إعجاب ، فقد استبسل في الحرب والدفاع عن بلده استبسال من يقدس الوطن ويعرف كيف يفنى في سبيله ، وقد قتل من الإغريق كثيراً جداً ، وظلت طروادة في أمن ما عاش ، فأما وقد توفى فقد هيض جناحها وضعف أمرها وملكها أخيل من حيث لم يكن يستطيع رده ، ويات أمله في النصر قوياً .

غضب باريس لموت صاحبه هكتور ، وآلى على نفسه ليقتلن أخيل ، فحمل قوسه وسهامه واندفع خلفه ، وكانت أم أخيل قد غمرته وهو صبي في ماء بثر سحري ، فأصبح جسمه لا تؤثر فيه السيوف والسهام ، ولكنها نسيت أن تغمر كعبه ، ذلك أنها كانت أمسكته منه حين دلته في الماء ، فأصبح الجزء الوحيد من جسمه الذي تؤثر فيه الرماح والسهام ، أما ما عدا ذلك فصلب تتكسر دونه الأسنة ؛ وكان ذلك سر قوته . وكان باريس يعرف هذا ، فسدد إليه سهماً أصابه في عقبه فمات لتوه .

أقبلت ثيتس أم أخيل تحمل جسد ابنها الشهيد وانطلقت به - وإن فؤادها ليتفرق حشرات - إلى مصب الدانوب فوارت جسده في جزيرة هناك ، وأقامت تندبه وترثيه وحيدة ، حتى رقت لها بنات الماء وخرجن إلى شاطئ النهر يُنخن معها على ابنها . واستطال الحزن أياماً ، وأقبلت الآلهة تواسي ثيتس - وكانت هي أيضاً إلهة - وعرضت عليها الآلهة أن تعيد إليه الروح ، على أن يظل في عزلة بعيداً عن الناس . وفرحت ثيتس بذلك ، واستقام الفتى حياً من جديد ! فمضت أمه وبنات الماء يغنين غناء عذباً جميلاً . ولم تشأ أمه أن تدعه وحيداً ، فخطبت له فتاة شهيدة مثله هي إفيجينيا أجل بنات الإغريق ، وكان أبوها قد قدمها قرباناً لأرتميس إلهة الصيد ، يوم غضبت على الإغريق وأوقفت سفنهم في الماء على مقربة من شواطئ أوليس ، وكانت أرتميس قد رقت لها وأبقتها في قيد الحياة راهبة .

خُطبت إفيجينيا الشهيدة إلى آخيل الشهيد ، ومضيا ينعمان بحياة سعيدة في عالم الخلود . وقد خلد جيته قصة إفيجينيا في درامتين من أبداع ما كتب ، وتناولها الأدباء بعد ذلك حتى أصبحت من أشهر شخصيات الأساطير .

هذه صور من البطولة أقل ما يقال فيها إنها جميلة ساذجة ، تشتمل على طائفة طيبة من صفات الرجولة البشرية في أقصى صورها . فقد رأينا آخيل خلال هذه الحرب كلها يحارب للفكرة ، ويجاهد في سبيل بلاده وأصحابه . وأما غضبه من أجل صاحبه بريسافلون من ألوان السذاجة التي تزيد الإنسان به إعجاباً ، فأخيل بطل شاب لم تغير الأيام نفسه ، ولم تخرج به متاعب الحياة عن سذاجة الطفولة البريئة ، وغضبه غضب ساذج لا شرَّ فيه كذلك . فهو لا يتقلب على أصحابه ولا يتخون الإغريق ، وإنما يسكت عن القتال ليعرفوا فضله ، وإن قلبه ليتفطر أسى لما يصيبهم من الهزيمة ، وهو يرجو أن ينصفه أجامنون ، ويرد عليه بريسا حتى ترتد إليه كرامته ويعود إلى القتال ، ولكن أجامنون كان شيخاً أنانياً لا تخلو نفسه من الشر ، وكان يرى من كرم آخيل ما يخفف من وطأة حبه لنفسه ، فيعيد إليه بريسا . وقد عاقبته الآلهة فيما بعد عقاباً صارماً ، فقتل على يد زوجه كليتمسترا - وكان لهذا قصة أخرى خلدها سوفوكليس في إحدى مسرحياته (إليكترا) .

ولم تكن هيلانة صاحبه ، وإنما كانت إغريقية اختطفها أجنبي ، وكان هذا حسب آخيل لينهض إلى الحرب ، ويشمر عن ساعده ، ففي جهاده معنى من معاني الوطنية والاعتزاز بكل ما يتصل بالوطن ، والثورة لكل ما يصيبه ولو كان أمراً تافهاً لا يستحق أن تثار من أجله الحروب . وكان آخيل شريفاً في خصومته ، لم يستعن بأمه وصواحبها من الآلهة لينتقم من أجامنون ، وكان في إمكانه أن يفعل هذا .. إن بطولته بطولة طاهرة يمارسها صاحبها لنفسها وكأنها فن يمارسه لذاته ، ولم يكن آخيل يطلب لنفسه مجداً ولا ملكاً ، فقد كان أعلى من الملوك بهذه النسبة الطيبة إلى الآلهة .

ومثل آخيل غيره من أبطال الإلياذة : شباب حر كريم شجاع ، يقضى الحياة في ميدان الحرب ، لا يهاب الموت ولا يرهب الجراح . فهكتور بطل طروادة لا يكاد يُعتمد سيفه في قرابه طول يومه ، وهو يقوم على أسوار بلده كالأسد لا يكاد يقربها عدو إلا قضى عليه ، وهو مع ذلك لطيف ساذج يعجب به أعداؤه ويتحدثون بشجاعته كأنه واحد منهم .

وحتى بارييس نفسه ، لم يكن بالشرير ولا الغاصب ، وإنما كانت هيلانة قد أعجبت به ، وكان يعرف أنها تحيا حياة مجهدة مع منيلاوس ، فقد كان غليظ القلب جافى الطبع لا يعرف كيف يعاملها وهي الرقيقة الفاتنة التي تهافت عليها ملوك الإغريق أجمعون . ثم إن الذنب ليس ذنبه وحده ، بل شاركته فيه أفروديت وهي إلهة ، وكانت أخرى منه بأن تعرف ما ينبغى ومالا ينبغى ، ولعلها دفعته إلى هذا دفعا ، حتى تشتجر الحرب بين البشر وتستمتع برؤية الناس في شقاء وَهَمٌ مقيمين !

وأما عواطف الأبوة والأمومة فهي معروضة عرضاً بديعاً جميلاً ، تراها في أحزان بريام على ابنه هكتور ، وتراها في آلام ثيتس على ابنها آخيل ، فتشعر - وأنت تقرأ هوميروس - جلال الأبوة وتفانى الأمومة على نحو فريد حقاً .

ثم إن رثاء بريام لابنه ليس رثاء كهذه المراثي التي اعتدناها ، وإنما هو وصف لطيف ساذج لمشاعره وأحزانه ، وكذلك أغنيات ثيتس وبنات الماء . وما أحرانا بأن نقرأ هذا كله عند هوميروس ، فإن فيه من منابع الإلهام ما يبعث الشاعرية ويملاً الخيال .

كانت سيرة آخيل درساً يلقن لناشئة الإغريق حتى تتهذب نفوسهم وتُشرب أرواحهم حب البطولة . كانت سيرته تفتنهم ، فيأخذون أنفسهم بالنسج على منوالها ، وكان هذا حافظاً لهم على ما أتوه في تاريخهم من أعمال البطولة والتضحية .

وليس بغريب أن يكون الإغريق ما كانوا وهذا منهاجهم في الحياة ومثلهم الأعلى . لاغرابة أن يصبح تاريخهم سجلاً حافلاً بالأبطال والرجال !

ألست ترى أثر الإلياذة وأبطالها بادياً في حرب الإغريق والفرس مثلاً ؟ أكان يقدر لهذه الفئة الإغريقية القليلة أن تصد هذا الجحفل الفارسي الزاحف لو لم يكن في نفوسها إلهام قوى ونزوع شديد إلى البطولة مصدره بطولة آخيل وسحر هوميروس ورجاله وأشعاره ؟ ..

أكان يقدر للإسكندر هذا الظفر الخالد ، والصيت الطائر ، بغير هذا الخيال الشامل الذي سرى في نفوس الإغريق من شعر هوميروس وسير أبطاله ؟ أليس طبيعياً أن يكتب لهذه الأمة الصغيرة هذا الديوان الحافل من البطولة والنصر ، وقد كان لشبابها ورجالها خير

ملهم من هذه السير الساحرة التي أبدعها هوميروس ، أو الشعراء الذين اصطلح التاريخ الأدبي على أن يسميهم هوميروس ؟.

بل لقد كان آخيل أبعد أثراً من هذا : قرأ الرومان سيرته فسحرتهم بطولته ، وانبرى شاعرهم فيرجيل فأبدع على مثال الإلياذة ملحمة جميلة هي الإنيادة .

مازالت الإلياذة حية في كل قلب حساس شاعر ..

ولا يزال يقرؤها كل من حفزته نحو البطولة نازعة أو ربطه بالخيال البديع نسب ..

مازالت ديوان الشاعر والأديب والمؤرخ والقصصي والجندي ، ومازالت منبعاً يستقى منه كل من أجرى قلماً على ورق أو عبث بأصابعه على معزف ..

كانت مصدر الإلهام لجيته وشكسبير وشيلر وشلى وجيروودو ، وكانت مصدر النغم لموتسارت وبيتهوفن وجلوك وشتراوس ..

إنها ديوان الدواوين وكتاب الأبطال ومصدر الإلهام !

أسد في ثوب إنسان

ليونيداس

• إن نفوس الآلهة لأضعف من أن تحمل قلب هذا الرجل . وإن الطبيعة البشرية لتضعف عن أن تحمل فضيلته ...

(سيمونيس)

وما عسى خيال الشعراء أن يبلغ في وصف هذا الرجل ؟ وما عسى الألفاظ أن تستطيع في تصوير إنسان كهذا ؟ وهل تستطيع هذه الكلمات القلائل التي نقشها سيمونيدس على قبر ليونيداس أن تمثل للناس هذا البطل كما ينبغي أن يتمثله الناس ؟ لعل حقيقة أمره أن تكون إغراقاً في الخيال ، ولعل حديثه أن يكون إسرافاً في المبالغة ، فما يصدّق العقل البشري أن رجلاً يثبت لجيش عدته ألف ألف وتزيد ، يثبت لهم ثبات الصخر الصلد الذي لا يلين حتى لقد زعموا أنه كان محتماً بجبل مسنداً إليه ظهره ، فلما انجلت الموقعة رأى الناس أن الجبل تزحزح إلى الوراء قليلاً ، أما ليونيداس فلم يبرح مكانه ومات حيث كان ! .

كان هذا قبل الميلاد بخمسة قرون ، وقد أقبل إجزرسييس ملك فارس على رأس جيش كأنه قطع الليل .. وكانت فارس قد أغارت على بلاد اليونان مرتين ، وارتدت عنها في كل منها تنوء بالخيبة القاصمة ، فلم يكد إجزرسييس يخلف أباه « دارا » حتى شمر للحرب ونفخ في صورها ، فخفت إليه القبائل تسعى والجحافل تترى ، فنظمها في جيش عدته ألف ألف رجل ، وازدادوا نصف هذا العدد في الطريق ، مزودين بما كانت فارس - سيدة الدنيا في ذلك الأوان - تستطيع من عدة الحرب التي لم يبلغها بالغ من قبل ولا من بعد في العصر القديم ، ثم ساقهم إلى بلاد اليونان سيلاً لما بلغ أوله بحر إيجه كان آخره على ضفاف الفرات كما يقول الرواة ! وأقام لنفسه نُزلاً من الرخام على ضفاف البسفور ليشهد بعينه عبور جيشه سبعة أيام بلياليها .

فلما هبط بلاد اليونان روع الإغريق من هذا الحشد الهائل الذى يزحف عليهم حاملاً الموت والدمار والعار ، وكان إجزرسييس قد آلى على نفسه ليمحوّن من العالم بلاد الإغريق محوّاً ، إذ كانت الدنيا بأسرها قد دانت لسلطانة ، ولم يبق غير هذه الدويلات المنثورة المتفرقة تناوئه العداة وتأبى أن تخفض له جناح الذل والامتثال ، وكان يحسبها مسرعة إليه باذلة الطاعة حين تجده مقبلاً عليها بهذا الجحفل اللجب . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، إذ أن الناس كانوا يهجرون الأرض ويتقهقرون فى عجلة لكى يتجمعوا أمامه جيشاً واحداً ويلقوه لقاء رجل واحد ، فما كان إجزرسييس يطأ إلا خراباً ولا يمر إلا بيباب .

ترى كيف يكون احتيال الإغريق لهذا الأمر العظيم ؟ لو احتشدوا كلهم جيشاً واحداً لما صاروا فى عدد جيش الفرس . ولكن ، أيطلبون صفح إجزرسييس ويشترون الحياة بهذا الذل الذى لا يمحقى ؟ أم تراهم يهجرون الأرض جملة وفى بلاد الله رحاب واسعة لمن طلب الحرية ؟ حاشى للإغريق أن يفعلوا هذا أو ذاك وهم يعتقدون أنهم خلاصة البشر ، وأنهم الأقربون إلى قلوب الآلهة ومراتبها .. حاشاهم أن يتركوا أثينا ومعبدها ليفعل به إجزرسييس ما يريد .

ترددت هذه الآراء فى مجالسهم الحربية ، ونادى بها بعض زعمائهم ، لأن الخطر المحدق كان جسيماً ، ولأن كل تفكير فى المقاومة كان يبدو كأنه ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا غر لا يحسن النظر فيما أمامه ؛ ولكن التقهقر وترك البلاد - وفيها أقداس الآلهة ، وتراث الأجداد ، وملاعب الصبا ، وجنان الحياة - أمر لا يطيقه إلا جافى الطبع ، الذى لا تعمر نفسه من الإنسانية خالجة . وكان الإغريق يرون أنفسهم سادة البشر وخلصاء الآلهة ، وكانوا لا يشكون فى أن واحدهم يعدل العشرات من غيرهم ، وكانت سيرتهم على ألسن أهل زمانهم أحداثثة تفيض بالمجد والعزة والكرامة ، وقوم هذا شعورهم بأنفسهم وهذا مكانهم فى الناس لا يسهل عليهم قبول الذل مهما عظمت التضحية فى دفعه ، فانتهى بهم الرأى - بعد طول تدبر وتشاور - إلى وجوب الوقوف للعدو والدفاع عن أرض الوطن العزيز.

ولم يكن من الميسور لقاء العدو فى ساحة عريضة مترامية الجوانب ، لأن بضعة الآلاف الذين يستطيع الهيلينيون حشدهم لن يلبثوا أن يختفوا فى هذا الخضم الحافل الذى كان

الفرس مقبلين به ، ولم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لدفع الخطر ، هي الوقوف في برزخ كورثه حيث يضيق المجاز ويختنق الطريق ولا يستطيع الفرس الاستفادة من جحافلهم ، لأن برزخ كورثه خانق ضيق لا يجوزه الإنسان إلا على شريط من الأرض ينحصر بين الجبل والبحر ، وكان إغريق فوكيا قد أقاموا على وسط هذا الشريط حائطاً يحميهم من غارات التّساليين شمال البرزخ ، وكانت هناك قرية صغيرة خافية على سفح الجبل عند مخرج البرزخ من الجنوب تسمى ألبينوس ، فحصنها الإغريق واتخذوها متكأ يعين جيشهم على الثبات .

ونذب الإغريق قائداً من أقوى محاربيهم قلباً لكى يقف ببعضهم على هذا المر في وجه الجحافل الأسيوى المقبل ، ذلك هو « ليونيداس » بن أنا كساندريداس ملك إسبرطة وفتى الإغريق المشار إليه في كل ملمة . وكان ليونيداس سليل بيت من الأسد توارث القيادة والنصر فيه آباءً عن أجداد ، فلم يكد مجلس الحرب يندبه لهذا العمل حتى خف معجلاً بسبعة آلاف من خيرة محاربي الإغريق ورماتهم . وكان ليونيداس يعرف أن الفرس إذا عبروا المجاز فقد أفضوا إلى أثينا قدس الإغريق وأحالوها تراباً ، ثم يفضون بعد ذلك إلى ولايات لوكريس وأرجوليس وإخايا وأركاديا من بلاد الإسبرطيين التي نجملها نحن اليوم تحت لفظ « المورة » فعول لهذا على الاستشهاد دون أن تمس قدم الطاغية المغير أرض وطنه العزيز .

وأقبل الأسطول الفارسي في مئات من السفن محملة بالجند والعتاد ، أرادت أن تدخل في خليج ماليا لتهدد جناح الإغريق الأيمن ، فما تسامع الأثينيون بذلك حتى أرسلوا ثلاثمائة مركب ونيفاً من أسطولهم لكى تقف في خليج ماليا ، وترد العدو . وأقبل أسطول الفرس ينساب كالحية بين الخلجان ، وألقى مراسيه عند رأس أرتيميسيوم ليحول بين أسطول اليونان والدخول ، ثم انتقل إلى أقيية لكى يكون في مأمن من العواصف ، فاستحال بذلك على الأسطول الإغريقي أن يتصل بليونيداس ورجاله ، واضطربت أفئدة الإغريق جميعاً خوفاً عليهم ، فبرز من بين الصفوف فتى أيدّ تعمر الوطنية قلبه ، فألقى نفسه في الماء وسبح عشرة أميال - من معسكر ليونيداس على شاطئ البحر إلى أرتيميسيوم حيث يرسو الأسطول - ليحمل الأخبار ، سبوحها دفعة واحدة غير مبال بالموت والأمواج ، فشابه بذلك فتانا المصري « شمائل » الذي سنراه في أخبار أبطال دمياط يسبح من المنصورة إلى دمياط ،

ويخترق النيل بين سفن الفرنج ورماتهم لكي يحمل الأنباء إلى مواطنيه المحصورين في دمياط .

في هذه الفترة كان ليونيداس يحصن مركزه في مضيق ترموبيلي ، فتخير ألفاً من الأبطال وبعثهم ليقفوا عند مخرج ممر جبلي آخر كان الفرس يستطيعون النفاذ منه ومهاجمة الإغريق من خلف ، ووقف هو مع ستة آلاف مستعداً لكل تضحية في سبيل المطلب الأعلى الذي ارتهن به حياته . وتعجب إجزرسييس من جرأة هذا الإسبرطي الرابض أمامه ، ولم يشك في أن الرعب لا يلبث أن يملكه فينسحب برجاله من هذه المهلكة ، ولكن ليونيداس لم يفكر إلا في شيء واحد : رد العدو ، والموت دون تراب الوطن العزيز .

وانتظر عاهل الفرس أربعة أيام ، لكي يعطى الإسبرطي فرصة يراود فيها نفسه قبل أن يهلك . وفي اليوم الخامس بدأ الهجوم ، وأطلق رماة الفرس على الإغريق سيلاً من الموت تلقوه في صبر وجرأة ، وانقضوا على الرماة بحراهم فزعزعوهم عن مكانهم وقتلوا منهم نفرًا غفيرًا ، فريح إجزرسييس واستثاره الغضب والحزن لمصاب جنده ، حتى لقد « قفز عن عرشه ثلاث مرات » كما يقول هيروdot . واستبان قواده أن زحزحة هذه الحفنة الإغريقية عن أماكنها مطلب لا يرام ، فلم يبق إلا إرسال فرقة من الجند تخترق الممر الثاني وتفجأ ليونيداس ورجاله من خلف ، فندب إجزرسييس عشرة آلاف من خيرة الجند وأرسلهم ليقوموا بهذه المهمة ..

وقد حدثتلك بأن ليونيداس كان قد احتس لهذا الخطر بألف من رجاله أرسلهم ليقفوا عند مخرج الممر ، فانقضت هذه الآلاف العشرة بغتة على أولئك الرجال وأنزلت بأكثرهم مذبحة مروعة ، وتفرق بقيتهم في الجبال ، وبهذا انكشف ظهر ليونيداس وتهدده الخطر من أمام ومن خلف . ولو أن رجلاً آخر كان يقود الإغريق في ترموبيلي لتقهقر وترك الدفاع ، لأن الثبات كان يعد في هذه الحالة ضرباً من الجنون . واجتمع مجلس الحرب من رجال ليونيداس ، وقرر بعض القادة أن ينسحبوا لينجوا برجالهم من هذه المذبحة ، وانسحبوا . ولكن ليونيداس أبي ، لأن شرفه كإغريقي وجندى أبي عليه أن يخلى بين العدو وبلاده ، فثبت في ألف وأربعمائة من رجاله ، لكي يحارب جيشاً تقرب عدته من ألف ألف ! وفرق

جنده على الممرات ومواضع الخطر ومحارس الجبل ، وبقي في ثلاثمائة من الرجال ليصيد الفرس .

وربما كان الصواب في مثل هذا الموقف أن تقف القلة المحصورة موقف الدفاع ، عسى ذلك يطيل أمد الحرب فتتاح الفرصة لبعض إمدادات إغريقية لكى تأتى . ولكن ليونيداس لم يطق الصبر ، وأخذته حمية الفتوة ، فحمل على الفرس بمن معه ، وظل يقاتل حتى وقع في الميدان صريعاً بعد أن قتل أخوين لإجزرسييس نفسه ، وأحاطت البقية الباقية من رجاله بجسده يدافعون عنه سيل الأعداء الذين ودوا لو مزقوه إرباً . واستمرت المعركة وقتاً طويلاً، وهذه الحفنة من الأبطال التى لا يزيد عدد رجالها على بضع عشرات تقاتل حتى فنت عن آخرها ، ولكنها كبدت العدو من الخسائر بضع عشرات من الألوف ! ... وعبر إجزرسييس المضيق على جثث الأبطال الخالدين وعلى جثث مواطنيه ، فكأنها آلى ليونيداس ورجاله أن لا تمشى جحافل المغير على تراب الوطن حتى تحوض في دماء جنوده الأجداد !

وتسامع الإغريق جميعاً بما فعل ليونيداس ورجاله ، فامتلات نفوسهم حمية وإيماناً ، ونظر إجزرسييس إلى من سقطوا من رجاله فريعت نفسه لهذه الكارثة ، وأنشأ يسائل نفسه : كيف السبيل إلى مغالبة قوم بهذه الشجاعة وهذا التفانى ؟ كان قد هلك من جيشه إلى الآن عشرات الألوف ، وتحطمت من سفنه مئآت ، وهو بعدُ مازال على أبواب بلاد الإغريق لم يطاء من أرضها إلا بقعة لا تغنى .

نعم لقد أفضى الفرس إلى أثينا ودخلوها فيما بعد ، ولكن ثبات ليونيداس أعطى مواطنيه وقتاً يستجمعون فيه قواهم ويتدبرون الخطة التى ينبغى أن تتخذ أمام عدوهم ، حتى استبان لهم أن خير السبل إنما هى ملاقاتة الفرس فى البحر ، وتحطيم أسطولهم الذى كان يسير بإزاء جيشهم على الساحل يمدده بالعون والمؤن . وكان ثيموستوكليس على رأس أسطول الإغريق ، فبدا له أن ينقل الحرب من البر إلى البحر ، ولم يكن عند اليونان إذ ذاك أسطول يستطيع لقاء أسطول فارس العظيم ، وكان لا بد من وقت لبناء سفن جديدة ، فنقل أهل أثينا إلى جزيرة مجاورة نأياً بهم عن ذل الفرس . وكان لا بد لذلك كله من وقت ، فلو لم يكن ليونيداس قد ثبت بجنده وأوقف الفرس هذه الفترة الطويلة لاجتياح العدو البلاد ،

ولما استطاع ثيموستو كليس جمع الإغريق لبناء الأسطول وهزيمة الفرس في سلاميس .

لقد مات ليونيداس ، ولكن موته كان موت الخلود ..

نجت به بلاد الإغريق من بلاء العدو المهاجم ، وتمهد به السبيل لنصر خالد لها على

الأيام .

يوم سلاميس

ثمستوكليس

٥٢٥ - ٤٦٠ ق . م

كان هؤلاء الناس ليسوا من البشر ، إنهم خلق آخر غير طعام الناس وعامة الأدميين ، في حياتهم هزل هو أقرب إلى أن يكون جداً ، وفي تاريخهم جد لا ينهض به غير الأمم الأصيلة العزيزة ، وأى أمة لها مثل هذا الفخر العميق الذى أبدعته أريستوفانس قبل الميلاد بقرون ، ثم لا يزال الدهر يتحدث عنه كأنه جديد لا يبلى ؟ وأى أساطير يعجب بها الناس ويتخذونها مأخذ الجد مثل أساطير هوميروس ؟ وأى جد هو أعنف من هذه الحرب الضروس التى أعلنتها على اليونان ؟ وأى برهان على عظمة هؤلاء ، وأى دليل على عبقريتهم هو أعظم من هذا النصر العزيز الذى وفقوا إليه في هذه الحروب ؟ وأى حديث هو أقرب إلى نفوس الرجال ، وأندى على نفوس الأبطال من حديث سَلاميس أو سيرة مَاراثون ؟ ذلك حديث لا ينفك الزمان له مردداً ، وأولئك أبطال لا يبرح الدهر بذكرهم مُنشداً . وأين في الناس مثل ثِمستوكليس ، ومثل أَلَسِياد ، ومثل أَرَسْتِيد ؟ بل أين فيهم مثل أى من هؤلاء الجنود الصناديد الذين ثبتوا لعدوا كاسر يرميهم بفيالق من الجند كأنها قطع الليل ، ثباتاً لا مثال له إلا في الأساطير ؟ .. وإذا كان هذا مقام جندهم العادى في التاريخ ، فما بالك بالمتازين فيهم ؟ ما قولك في رجل يكاد يكون أخلدهم بعد بَرِكليس ، وأبعدهم في حياتهم أثراً ؟ ما رأيك إذن في ثِمستوكليس ؟

تلك يونان القديمة تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء العدو الفارسى المهاجم ، وتلك ولاياتها قد تضافرت وأقامت لنفسها جيشاً واحداً خف للقاء العدو عند برزخ كُورِنْتُوس ، وهذا ملك قَرْطَاجَنَة يُوربياد ، قائد الجنود العزيز يقودهم وقد حمل فؤاده في كفه ثم هذا ثِمستوكليس رئيس مجلس أثينا : إنه يتأمل الأمر فلا يتهى إلى الاطمئنان . لقد قرر

يوربياد أن تترك أثينا كلها - وفيها أثينا - لينهبها الفرس ، فإذا تقدموا بعد ذلك لقيهم اليونان في هذا البرزخ الضيق الخائق ؛ ولكن ثمستوكليس لا يرضى عن هذا ولا يطمئن إليه وكيف تباح أثينا ، ويهدم الأكروبول ، وتهدر كرامة الإغريق ؟ وكيف ينفذ العدو إلى ما يريد دون أن يلقاه الأبطال الصناديد ؟ لا ، إن هذا لن يكون ، وليقف اليونان للعدو يصدونه عن أثينا ، وليكن بعد ذلك ما يكون . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والإغريق شرذمة صغيرة إذا قيست إلى جيش إجزرسييس ؟ هنالك أعمل الرجل الفكر حتى تفتن إلى هذا الحل البديع الذي أنقذ اليونان وحضارة اليونان .

خف الرجل إلى مجلس الحرب واجتمع مع القادة وعرض عليهم ما انتهى إليه رأيه ، وقال : « لنبن أسطولا ضخماً ، لأن الفرس قوم بريون لا يعرفون البحر ولا صبر لهم على أهواله ، ونحن أولى أن نبحت عن مكان الضعف فيهم لنغلبهم منه . فلنبن أسطولا ضخماً نزوده بأفضل من عندنا من الملاحين وساسة السفن ، فإذا فكر الفرس في نزول البحر لملاقاة أسطولنا هزمناهم على صفحة الماء على أيسر سبيل ، وإذا مضوا في البر نزل رجال أسطولنا من خلفهم إلى البرزخ وأغلقوه ، فوقع الفرس بذلك بين نبال جندنا من أمام وحراب ملاحينا من الخلف ! » .

أعجب المجلس بالفكرة إعجاباً شديداً وهلل لها اليونان تهليلاً ، ولكن يوربياد لم يرض عنها ، وكيف يطمئن هو إلى رأى يجرمه نصيبه من البطولة ، ويضيع عليه الفرصة المرموقة في المجد والخلود ؟ إنه ليرفض رأى ثمستوكليس ويعارضه أشد معارضة ، بل إن اللجاج ليشد بينهما حتى ينهض يوربياد ويهوى بيده على وجه ثمستوكليس في وسط المجلس ! ترى ماذا يفعل هذا الرجل العظيم ؟ إنه ليسكن لحظة كأن شيئاً لم يحدث ، ثم ينظر إلى يوربياد ويقول له جملة التي حفظها الناس عنه ، ولا زالوا يرددونها حتى اليوم : « اضرب .. ولكن لتسمع ! » . أجل ليضرب الأحمق ما يشاء له حمقه ، وليجهل ما يسعه الجهل ، فهذه أمور ينحصر ضررها في ثمستوكليس وحده ، وهذا أمر لا يهم ، ولكنه لابد أن ينصت إلى ما يعرضه عليه ثمستوكليس ليقنع به ولينفذه حتى ينجو الوطن . وأحس القرطاجنى حرج مركزه . وأنصت فإذا حديث ثمستوكليس يلقي من نفسه القبول والرضا ، وإذا هو يوافق ، ويمضى إلى التنفيذ ! .

ولم يكن عناد يوربياد هذا أعنف ما لقي ثمستوكليس من المقاومة في سبيل إنفاذ رأيه ، فقد كان اليونان إذ ذاك لا يكادون يطبقون التفكير في ترك بلدهم العزيز نهبا للعدو وانتظاره في سفائن على الماء ، فما زال الرجل يحتال عليهم ، بالرأى تارة وبالحيلة تارة أخرى، حتى رضوا واطمأنت نفوسهم ، وأقبلوا ينفذون رأى قائدهم البعيد النظر .

أتصدق أن اليونان بنو الأسطول في أسابيع ؟ وأنهم دربوا الجنود ، وأعدوا العدة ، وانتظروا إلى جانب سلاميس قبل أن يصل الفرس إلى قلب الجزيرة ؟ ثم أتصدق أنهم أدخلوا أثينا من سكانها ، ونقلوهم كلهم إلى جزيرة سلاميس ، إلا نفرأ من الجند أبت عليهم ووطنيتهم أن يخلوا بين العدو والعاصمة ، فلبثوا يحمون الأكربول وماتوا على أسواره ؟ .

وأقبلت جحافل الفرس فسحقت ليونيداس وأصحابه في ترمؤبيل ، ثم انقضوا على أثينا فحرقوها ، ثم نظروا فإذا اليونان لهم في البحر بالمرصاد .

وأقبل الأسطول والتقى الجمعان ، وكان ثمستوكليس على رأس أسطول اليونان ، فأظهر من القدرة والمهارة ما خلد اسمه في التاريخ ، واستطاع أن يقهر القوة الفارسية الهائلة ، وأن يخط في سجل الزمان سيرة هي أعجب السير ، ونصرا هو أفخر الانتصارات ؛ ذلك نصر سلاميس . وكان إجزرسييس يرقب المعركة من فوق تل على الساحل ، فهاله أن وجد قواته تتهاوى إلى قاع اليم ، وسفنه تفرق ويبتلعها الماء ، ثم نظر فإذا أسطوله أثر بعد عين ، وإذا هو وحيد خائف قد تقاسم جنده اليم والأسر والفرار ، وإذا هو يهرج القهقري مخافة أن يسبقه اليونان إلى الدردنيل ويأتوا على البقية الباقية من قواته عند هذا البوغاز الخطير .

ثم انظر إلى ثمستوكليس بعد ذلك ، وقد ثار به خصومه في الجمعية وهاجموه هجوماً عنيفاً ، واتهموه بالسرقة سنة ٤٧١ ق . م . لقد دافع عن نفسه دفاعاً مجيداً ، واشتد أنصاره في حمايته ، ولكن الأعداء لا يرحون ، فيثبتون عليه التهمة ، ويحكمون عليه بالنفى ، ويطرد من بلاده ، فيطوف في الآفاق شريداً .

عاش ثمستوكليس بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش في ظلال النفى والتشريد ، يتأثره أعداؤه من بلد لبلد ، وينصبون له الشباك في كل مكان ، وتضيق به الأرض على رحبها ،

وتسد في وجهه المسالك على كثرتها ، حتى وصل إلى آسيا .

في هذه العزلة القاسية ، وفي ظلال ذلك الهم المقيم ، يتأمل الرجل حياته الطويلة منذ نشأ في أحضان الفاقة في قرية خاملة ، ومنذ مضى يطلب المجد والشهرة والغنى في أثينا ..

ثم يتأمل حاله بعد ما أسدى إلى اليونان من خير ، وما صاروا إليه بعد أن انقلبوا عليه وأسلموه لهوان الذل والحرمان ..

هنالك يشتد به الهم ، ويشتد عليه طلب الأعداء ، فيخف إلى بلاد فارس ليختفى في وهادها ، وليموت بين فيافٍ لا ترحم ، وقمم لا يعمرها غير العقبان ..

تاريخ رجل

ديموستين

نحن اليوم في طريقنا إلى الجمعية العمومية لأحرار اليونان ، لنشهدهم في أبهى مظاهر حريتهم ، وأكمل صور حضارتهم . إنهم اليوم - فيما يبدو - منصرفون إلى أمر ذى بال يستغرق انتباههم كله . إنهم ليتسارعون إلى الجمعية العمومية يتزاحمون على مجلسها ، يود كل منهم أن يفوز بمكان طيب يشهد منه المناقشة ، ويشتد بينهم الصخب واللجاج . لنفعل فعلهم ولنتخذ أماكننا في الجمعية على مقربة من منصة الخطباء ، لأن الأمر فيما يلوح خطير ، ولأن المشهد سيكون فيما يزعم الناس بديعاً فريداً ، قلما يظفر الناس به في غير المناسبات النادرة الفريدة من هذه الحياة اليونانية السياسية الحافلة بكل طريف وجليل .

هاهم أولاء أساتذتهم ، وطلابهم ، وحكامهم ، وسرواتهم ، وعامتهم ، يجادل بعضهم بعضاً ، ويغاضب بعضهم بعضاً : إن أهل السياسة ليؤكدون لمحدثيهم أن «أوروبوس» وأصحابه مجرمون ، وأن القضاة لن يفلتوهم من عقاب صارم ، وما عسى أن يفعل المحامون في الدفاع عن من حقت عليهم تهمة خيانة الدولة ، وثبت اشتراكهم مع الأعداء على الوطن العزيز ؟ وأي محام يؤتى من القدرة ما يقنع به القضاة بالتهاون في أمر من امتدت أيديهم إلى ما اتتمنهم عليه مواطنوهم من مال ؟ .. أما الأساتذة وطلبة القانون فكان لهم رأي غير هذا إنهم لعل ثقة من أن كالمستراتس قدير على أن يجعل البياض في أعين الناس سواداً ، وأن له لساناً غضباً وفكراً سليماً ومنطقاً ساحراً ، وأن له بلاغة موكلة بالمعجزات ، فما يكاد يرسل صوته الرنان يهدر في فضاء الجمعية ويضطرب في آذان القضاة ، حتى تبدو براءة أوروبوس ناصعة لا تشوبها شائبة ، وحتى تبرى الآلهة ساحته وتخلصه من عذاب أليم .

وتشتد اللجاجة بين الجانبين ، فيشتد شوقنا إلى رؤية هذا المدبره الداهية ، وسماع حديثه

الذى ملأت شهرته الآفاق ، حتى عده الناس إحدى عجائب الدنيا . إن اللجاج ليطول
وإن الصبر ليقصر ، ولكن رويداً !

أولئك هم القضاة يقبلون في خطوهم المتد وحكمتهم البادية ، أولئك هم يشقون
طريقهم صامتين ، يشغلهم التفكير في شئون العدل عن الناس وصخبهم ، وأولئك هم
المتهمون يتخذون أماكنهم قرب القضاة وهم أشد ما يكون ثقة في البراءة ، وهذا هو
كالستراتس يقبل فيهتف الناس باسمه هتافاً متصلاً ، ويصفقون له تصفيقاً مدوياً ،
ويتظاهرون لرؤيته والاقتراب منه كأنه إحدى فُرج الدنيا ، وهو مزهو بنفسه لا يكاد يشعر
بمن حوله من كثرة ما يفكر في نفسه وينصرف إليها ، شأن كل من يفرط في الإعجاب
بنفسه حتى يطيش صوابه ويضله الغرور .

هاهو عقد الجمع يكتمل ، والقضاة يعلنون بدء المحاكمة ، وهذا هو كالستراتس
ينهض فيحبس الناس الأنفاس ويرهفون السمع ، ويتبادلون رجاء السكوت ، ليتيسر لهم
سماع الخطيب الذى يبدأ يهدر بالكلام ، يصعده ويحدره ، ويلعب بالنفوس يرضيها
ويسخطها ، حتى ينتهى من دفاعه ويخرج بين براءة المتهمين وإعجاب المعجبين .

ثم هذا هو الجمع ينصرف عن الجمعية وقد اشتد الجدل وقامت قيامة الألسن . إن
الناس مختلفون الاختلاف كله حول هذا الحكم الغريب الذى أصدره القضاة : فريق منهم
يؤكد أن المسألة مسألة عدل وليست مسألة بلاغة أو تلاعب بالعقول .. إن المتهمين خونة
مضيعون ما فى ذلك شك ، فكيف تبرأ ساحتهم لأن رجلاً لسنا بارعاً تصدى للدفاع
عنهم؟ إن إعجاب القضاة ببلاغة الخطيب لا يكفى ، لأن الحكم ينبغى أن يقوم على
الحقائق المجردة . أما الفريق الآخر ففريق الشباب اليافع المتوفز الذى يرى الحياة فناً جميلاً
يملك ناصيته الملهم الذكى الموهوب ، وهو يحكم على الأمور بمشاعره لا بعقله ؛ وما دام
هذا المدره قد خلب لبه بما أبدى من التفنن فى القول ، وما أبدع فيه من العبث بالمنطق
والواقع ، وما تكلفه من التصرف فى مواد القانون ، فإنهم معجبون به مؤيدون له . إنهم
يمثلون الفكر المتفنن الذى يعجبه الإبداع والابتكار كيفما كانا ، فى سبيل الخير أو فى سبيل
الشر ، لأن المهم عندهم هو الخلق والتجديد .

وقد كاد الجدال بين الفريقين أن يصير خصاماً ، وكادت الخصومة أن تكون شجاراً ؛ فلنبتق في أماكننا حتى ينصرف الجميع ويهدأ الجو ويخلو الطريق ..

لا يكاد المكان يخلو من أهليه ، ولا تكاد أقدامنا تمضي بنا نحو الباب ، حتى نرى شيئاً لا نملك معه معجياً .. فهذا صبي صغير ينهض من تحت المقاعد ! وهو ينفض التراب عن شملته كأنه كان ملقى على الأرض ، أو كأن زحمة الناس ألجأته إلى التراب ، ثم إذا به - حين يطمئن إلى خلو المكان - يجلس على أحد المقاعد ويسرح ببصره ، كأنها يستغرقه الفكر أو كأنها تحمله الأطياف على أجنحة الأحلام ، ثم يصحو من الغفوة فينهض ويتخذ هيئة كالستراتس ، ويمضي يقلده في صورة تبعث على الضحك . فبينما هو في هذا إذ أقبل مؤدبه يلتمسه ، فإذا رآه صاح به ثم عدا إليه يضربه ، والفتى ساكن لم ينقطع تفكيره في الخطيب بعد ، فهذا هو يسير مع مؤدبه شاخص البصر ذاهب الفكر ، يخالس منصة الخطيب النظر ، ويطوى نفسه على حزن كامن وألم شديد .

هذا صبي له شأن ما في ذلك ريب .. فلنلتمس أخباره ، ولننصحه ما وسعنا في مسلك الحياة ، ولتسقط أنباءه ، عسى أن يصدق ظننا فيه .

* * *

يريد الفتى أن يكون خطيباً ، ويشتد على نفسه لإدراك هذا المطلب ، ولكن لسانه لا يطاوعه ، وصوته يخونه ، ومنطقه يقعد به عما يريد . إن لسانه يعاني ثقلاً يعوقه عن الانطلاق مع الحديث إذا أراد ، ولكنه لا ييأس ولا يدركه الملل ، بل هو يأخذ لسانه بالمران حتى تفارقه هذه اللثغة التي تثير الضحك ، وإنه ليشتد في مران صوته حتى يخلص من اضطرابه البالغ ، وإنه ليجتهد في تقويم منطقته بالفلسفة والعلم حتى يستقيم ، وإنه ليقاسى من هذا مشقة ويتجشم تعباً .

وقد بلغ به الجنون بالخطابة ، أن كان يذهب إلى شاطئ البحر ، ويمضي يخطب الأمواج ، ليضيق صوته في هدير الماء ، ولا يعود يسمعه فيخجل من نفسه ، أو يخشى أن يراه إنسان . هو يطيل البقاء على الشاطئ ساعات متواليات ، يقترح على نفسه مواضيع يخطب فيها ، ثم يمضى يتكلم ، ويتصور نفسه في مجلس كبير أو في محكمة ، وأن

المقاطع تتواتر ، والأسئلة تتوالى ، وهو يرد عليها ويناقشها ويدحضها ، حتى جرى لسانه وثبت جنانه وتجلي بيانه . وتنقضى الأيام وهو يعالج نفسه على هذا النحو المجهد حتى تُجهد حنجرتة وتكاد تمرض ، وتمضى الشهور وهو في حيرته بين فلسفة الفيلسوف وحذقة اللغوى وجنون الخطيب ..

ثم يدرك أن ما يبذله من الجهد لا يكفي ، لأن خروجه إلى الناس وجلوسه معهم يستغرقان من وقته الشيء الكثير ، لأنه لا يطيق الوحدة الطويلة ولا تلبث نفسه أن تضيق بها ، فيمضى إلى حيث يسمر وينفق الوقت ؛ وكان هذا يثير في نفسه الندم . فلم يجد وسيلة تمنعه من هذا الإسراف في الوقت إلا أن يجلس نفسه عن الناس أشهراً طويلة ، وليس أعون له على هذا من أن يخلق نصف رأسه ويدع النصف الآخر ، فلا يجروء على الخروج إذا حدثته نفسه بالخروج ، ولا يستطيع أن يلبى نداء نفسه إن هى مالت إلى شيء من اللهو والتسلية ! ولا يزال بنفسه على هذا حتى يطمئن إلى أنه قد صار خطيباً متمكناً ومدرباً بليغاً ، فيخرج إلى الجمعية العمومية ويتخذ مكانه ، ويتحين كل فرصة للحديث فيبادرها وينهض ويأخذ في الكلام .

تُرى ما الذى يبعث الناس على السخر منه والتعقيب على حديثه بالتهامس والغمز ؟ بل ما الذى يبعث أعضاء الجمعية على الإعراض عن الفتى الخطيب وإسكاته قسراً ؟ لقد فارقت عجمة اللسان ونفض عن صوته الاضطراب ، فما السبب في هذا يا ترى ؟ إنه ليطيل التفكير في هذا ولا يكاد يهتدى إلى أسبابه ..

حتى إذا كاد اليأس أن يستبد بنفسه ، لقيه في بعض الطريق صديقه الممثل ساتيروس وقد أحزنته خيبة صاحبه ، فهم به يلاحقه ، حتى إذا أدركه استمهله وسأله أمره ، فأنفجر ديموستين يشكو له مصيبتة ، ويطلب إليه أن ينصفه وأن يصدقه رأيه ، ويسأله : ألسنتُ أذكى الخطباء وأوسعهم علماً وأدقهم فهماً ؟ أليس يبدو لك ما تكلفُ من جهد ، وما حملت من مشقة ، وما تجشمت من عسر حتى أدركت هذه المرتبة ؟ فما لى يا أخى يلاحقنى الفشل ولا أكاد أظفر من إعجاب الناس بقليل أو كثير ؟ فيجيبه صديقه : « أجل ياديموستين ، وأنا أعرف موضع النقص في فنك ، وإننى لمعالجك حتى تخلص مما يقعد بك

عن مطلبك « . ثم ينصرفان إلى الدار ، وهناك يطلب الممثل من الخطيب أن يتلو أمامه بضعة أبيات من يوربيديس أو سوفوكليس ، فيلقياها الفتى ، فينهض الممثل ويأخذ في تصحيح الأخطاء وتصويب العبارات وتهذيب الإشارات وتقويم المنطق . ولا يزال به يزوره ويعلمه ، حتى يخلص به من عيوبه أو يكاد ، ويصبح الفتى أعجوبة الزمان فصاحة وبياناً .

* * *

في تلك الأيام كانت الأقدار تبيت للإغريق أمراً عظيماً ، وتعد العدة لتمتحنهم امتحاناً جديداً . كانت تنفخ في أهل مقدونيا وتقيمهم من نومهم لتبعثهم على الإغريق حرباً ودماراً ، وكان أمر مقدونيا قد انتهى إلى فيليب أبى الإسكندر ، فأغراه ضعف اليونان بالعدوان عليهم وامتلاك بلادهم ، وكان أمر هذه البلاد قد انحط وضعف بعد إذ تفككت أحلاف شعوبها ، واشتدت الخصومة بين أبنائها : عدت أثينا على إسبرطة ، وعدت إسبرطة على أثينا ، ونهض أبامنداس الطيبى فعصف بالاثنتين بجيشه الجديد الذى أحدث به في عالم الحرب انقلاباً كبيراً . وكان فيليب قد أخذ الحرب عن هذا القائد الطيبى ، فأحسن تأثر أستاذه وأقام في مقدونية جيشاً شديداً البأس أربب به الإغريق وذهب يتهددهم ببأسه يوماً بعد يوم . وأدرك الخوف الولايات فتسارعت تعلن الطاعة للمقدونى القاهر ، حتى أثينا نفسها لم تخل من ضعفاء يرون في الزلقى للمستبد لوناً من ألوان السلامة في هذه الدنيا .

ورضى فيليب عن هذه الطاعة التى بذلها له الناس مسلمين ، فبعث رسله ومندوبيه يتلقون الطاعة ويجمعون الجزية ، وأصبح الإغريق الأحرار عبيداً كغيرهم من الشعوب التى كانوا يركبونها بالسخر ويحملونها كل مهانة .

كان ديموستين ساخطاً أشد السخط على هذا الأمر ، فقد عاش طول حياته - حتى الساعة - على قمة الحرية السامقة كأنه طير في فضاء الله ، وكان قد بذل هذا الجهد ليجعل من نفسه صرحاً من صروح العدل يدافع عنه إذا مال ميزانه ، فبادت به الأرض حين وجد أن الدنيا لن تسمح له بالعيش فيها بعد الساعة إلا عبداً ذليلاً كغيره من بنى وطنه ، وأصبح

لزاماً عليه أن يحنى الرأس للقاهر المتجبر ، وأن يمشى في ركابه وأن يضع منطقه وبيانه في خدمته . ضاقت نفسه بذلك ونفرت تطلب النهوض بالوطن المهيض ، ولكنه لم يكذب يوماً في هذا حتى وجد نفسه وحيداً فريداً لا يكاد يردد دعاءه أحد .

كان نجم الحرية الإغريقية قد أفل وتولى ، وقد هرمت النفوس وتولاها الإعياء ، فاستوى عندها العيش في ظلال الحرية أو تحت أثقال العبودية . ولكن ديموستين يخفّ رغم ذلك إلى الجمعية العمومية ، ويقوم في قومه خطيباً يريد أن يستنهض الهمم ، ولكنه كان يقف وحيداً في ركن من أركانها يهاجم فيليب المقدوني ، فلما مات وخلفه الإسكندر تصدى له بنفس المهمة والشجاعة ، ثم رأى بعض الخطباء من مواطنيه ينضون تحت لواء الغاصب ويضعون ألسنتهم في خدمته : يدافعون عنه ويتملقونه ويرجون الإغريق أن يخفضوا له الهامات ، وأن يسيروا في ركابه سير الطائع الممثل ، فهاججه ذلك وأخذ يهاجم ذلك الفتى المتوفز الذى يتصدى لزعامه الدنيا ، والذى قر في نفسه أن أحداً من الناس لن يجروا على رفع رأسه أمامه .

وقف ديموستين وحده يعادى الخطباء جميعاً ، ويهاجم واحداً بعد واحد ، ويأخذ عليهم تحاذلهم عن الوطن في ساعة اشتدت عليه فيها الخطوب ، ومضوا يحاولون مجادلته فلم يستطيعوا له دفعاً ، وأصر على مهاجمة المقدونيين إصرار من باع نفسه واستوى عنده الموت والحياة . وأخذ القلق يساور أصدقاءه على مصيره ، فمضوا إليه يرجونه أن يكف عن هذا السعى نحو الموت ، ويؤكدون له ألا خير في هذا الجهد يبذله ، فقد خبت النيران في قلوب اليونان وما عادوا يطلبون غير العافية ، بل هم يعرضون عليه المال فلا يرضى ، ولا ينفك يأخذ مكانه في الجمعية كل يوم ، ويلقى كلماته القاسية يهاجم بها المستبد ويستثير الحمية الراقدة في نفوس مواطنيه ، حتى يترامى خبره إلى الإسكندر في بلاطه ، فيعجب به إعجاب بطل يبطل ، ويضطرب لأحاديثه ويستزيد منها ، ويتسامع بأمره كسرى فارس فيبعث له الهدايا والرسل يؤيده ويشد أزره .

ولا يزال الرجل في ذلك حتى يكتب الله له التوفيق فيما طلب ، فيأخذ الإغريق يتناهبون لترديد دعواه ، ويتداعون للسير معه ، ويتحدث خطبائهم بالثورة يهيئون بقومهم

إليها ، وإن الحمية لتعود إلى القلوب الساكنة ، وإن ثبات الإيمان ليعود إلى النفوس الحائرة ، وما هي إلا شهور حتى نشهد أهل أثينا على ماشهدناهم عليه أيام غزوة الفرس : شجعاناً يخفون إلى الميدان سراعاً ، ومقاتلين يسرعون إلى الرغى خفافاً . ولا يكاد إخوانهم في إسبرطة يتسامعون بالأمر حتى يمدوا سواعدهم ويلبوا سعداء هذا النداء ، ولا يكاد أترابهم في الجزائر والجبال والوديان يظهرون على الأمر حتى يقبلوا معجلين ، ويكتمل لديموستين منهم جيش قوى عزيز ، يمضى معه إلى حيث يلقي الإسكندر الفاتح العظيم .

ولكن عز الإغريق كان قد تولى ، وأيامهم الغر كانت قد ذهبت مع أمس الدابر ، وابتدأت الآلهة تتوجه بحبها وعنايتها إلى الشمال ، إلى مقدونية وفتاها المجيد إسكندر . ولم يكن بد من أن يتصر الإسكندر على ديموستين ، فلم يكن هذا بالقائد القادر ! . انتصر الإسكندر العبقري الذي فتحت الدنيا على مقدمه كتاباً مجيداً ، ولا مفر لديموستين من أن يودع أجناده المنهزمين في ساحة خايرونيا .

طبيعى بعد هذا أن يشقى ديموستين ، وأن يطلبه الغالب ويجد في طلبه ؛ بل تزيده الأيام نكاية : ينقلب قومه عليه ويقدمونه للمحاكمة ، ويجتمع عليه الأعداء ممن يؤلبهم الإسكندر من كل صوب ، ولكن الرجل يستعين عليهم ببلاغته ويخذلهم عما يريدون ، ويخرج من المحاكمة نقي الصفحة برىء الساحة .

ولكن الإسكندر لا يسكت عنه ، إنه يطلب إلى الأثينيين أن يعثوا إليه ثمانية من خطبائهم ليكونوا في ركابه وحشمه وعدته وعتاده ، ويسرع الضعاف من أمثال بوليوكتس وأقيالتس وليكزجس إلى الملك الشاب يبذلون له الطاعة ويظامنون مواهبهم أمامه . إلا ديموستين ! فقد أبى الذهاب على رغم إصرار الإسكندر وطلبه إياه بالذات ! .

وعرف الرجل أن منيته قد أوشكت ، فذهب إلى كالدونيا ، وجلس هناك ينتظر رسل الإسكندر . ولم يطل به الانتظار ، فقد أقبلت الجنود إليه في معترله .

ها هو ذا قائدهم أركياس ينقر الباب ويدخل ، ويطلب إلى ديموستين أحد أمرين : إما الموت وإما طاعة الإسكندر ، ويرفض الرجل . ويلح القائد عليه ، فيصر إصراراً بالغاً . فإذا يش منه ، استدار وتركه يفكر .

هنالك طلب ديموستين صفحة يكتب فيها شيئاً لأهله ، ثم يغافل القوم فيخرج قارورة فيها سم فيتناوله ، ثم يرفع رأسه فيقول وهو يضحك :

—والآن يا أركياس ! تستطيع أن تأخذني إلى حيث شئت ، بل ها أنا أسير معك ..
ويمضى .. حتى إذا أدرك الباب تعثرت قدماه واضطرب كيانه ، ثم .. خر شهيداً !

اسكندر العظيم

٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م

كيف استطاع هذا الحَكَمُ الصغير أن يقهر الإغريق ؟ وكيف تأتي لهذا الناشئ الرقيق أن يغلب ذلك الشعب الذي لم يغلبه غالب ولم يخضعه سلطان ؟ . هكذا كان الناس يتحدثون حين انتهى عرش مقدونيا إلى الإسكندر بن فيليب ، وكان هذا الملك الجديد يخطو من السادسة عشرة إلى السابعة عشرة ، وكان أبوه قد أساء إلى الدولة وزعزع ثقة الناس فيها ..

كان طاغية منهوماً في كل شيء ، وكان شرهه إلى النساء أضعف نواحي نفسه ، ولو أن زوجته أوليمبياس كانت كغيرها من نساء ذلك الزمان هدوء طبع وإسلام قياد لما نجم عن ذلك النهم ضرر كبير ، ولكنها كانت أميرة عزيزة النفس بعيدة الهمة ، لا تكاد تطيق أن يتخذ زوجها عليها أخريات ، فمضت تلومه أمام الناس ، حتى كرهها هو ، وأبغضها خلال السوء المحيطون به ، وبدأت ألسنتهم ترميها نكايه فيها . ثم بدا لفيليب أن يتزوج ابنة أحد قواده المقربين ، وكانت فتاة يافعة ذات حسن اسمها كليوباترة ، ولم تجد أوليمبياس وسيلة توقفه بها عند حده ، فكان له ما أراد ..

وأقيم حفل الزفاف وسالت فيه الخمر أنهاراً ، وأقبل والد العروس يربت ظهرها ويرجو الآلهة أن ترزق فيليب منها ابناً « شرعياً » . وكان الإسكندر على مقربة منه ، فأحس أن القائد المخمور يلزمه ويهمز أمه أوليمبياس ، فألقى بالكأس في وجهه . واستشاط الأب المخمور غضباً حمياً لصهره ، فنهض بالسيف يريد أن يخترق صدر ابنه ! ولكنه لم يكد يخطو حتى دارت رأسه بالخمر ، فوقع يتدحرج ، وصاح الإسكندر والدمع في عينيه : انظروا إلى الرجل الذي يريد أن يعبر من أوربا إلى آسيا وهو لا يستطيع الانتقال من مقعد إلى مقعد !

وما كانت أوليمياس لتسكت لفيليب عن هذا . لقد انضاف إلى جرح كرامتها خوف على العرش أن يفلت من يد ابنها الحبيب . وكان الله قد سواها من طراز لداتها المقدونيات، وكن فيما يعرف التاريخ أكثر بنات حواء استهتاراً وأبعدهن مدى في طريق الجناية ، فما زالت أوليمياس تطوى نفسها على الخوف المستبد والجرح المتجدد ، حتى تمكنت من فيليب عشية رحيله في غزوته الكبرى نحو آسيا ، فما كاد يتعد عن حراسه حتى عاجله رجل بخنجر مزق به صدره ، وتقدمت الملكة القادرة في دهش من الناس بعد ذلك بأيام ، ورفعت التاج على جبين ابنها العزيز !

وتلقت الإغريق وتنفسوا الصعداء . لقد زال عنهم كابوس فيليب وجيوشه ، وارتدت إليهم حريرتهم بعد طول عناء . بدأت أئينا تستعيد مجدها ، وإسبرطة تنادى جندها ، وطيبة تنهض من مهدها ، ونظر أشرف مقدونيا فإذا الأمر مضطرب في كل مكان ، وأحبوا أن يدعوا الأمور تجري في أعتتها ، وليذهب المجد من حيث جاء ! ولكن الفتى الصغير أبى وأقسم ليكونن مثل أبيه ، بل خيراً منه وأبقى ، وليؤدبن الطاغى والعاصى ، وليردن إلى الطاعة كل مستهتر جاهل ، وليرين الناس أن فتى قام على تربيته أرسطو وأخذ فن الحرب عن أبا مننداس ووهبته المقادير ذهنأ صافياً ونفساً بعيدة المطامح ، لا يعدم في سماء العلا موضعاً! ..

ومن ثم أعلن الإغريق كلهم يطلب طاعتهم ويعلمهم أن الأمر باق على ما هو عليه ، وأن رعية أبيه رعيته ، وويل لمن أضله الشيطان ! . هنا ثار الإغريق كلهم ، وأجمعوا أمرهم ودبروا تدبيرهم ، واندفعت جحافلهم لتؤدب الفتى الصغير . وأسرع هو إليهم حتى لا قاهم في معركة بعد معركة ، وهنا رأوا أمراً عجيباً : هذا الفتى الصغير يقود الجند قيادة ساحر ، ويصرف الأمر تصريف ماهر ، فما هي إلا هجمة هنا ولفة من هناك ، وتقهر في اليمين ودفع في القلب ، حتى يرى الإغريق أنفسهم في ويل ، وإذا الذي نجا منهم يحمد الله على أن لم يقع في الأسر ، والذي وقع في الأسر يحمد للإسكندر نعمة الحياة .

فلم يكد الإغريق يروونه كذلك حتى أخذوا بما كان ييديه من مظاهر النبوغ ، فهو لا يلقى بجنده في المعمة مغمض العينين ، وإنما يطيل التفكير ويحكم الخطة ، فلا يضحى

بجندى من غير ثمن . وما زالوا يرمونه بخير رجالهم ويرميهم بخير رجاله ، حتى هدم آخر معاقلمهم في خايرونيا ، من ظواهر طيبة ، هزيمة ردت عقولهم إلى رءوسهم ، فعادوا إلى الرشاد وعرفوا أن الفتى ليس غازياً يطلب الحرب ، وإنما هو بطل يخطب الأبطال ويرجو أن ينظمهم في صف واحد يمضى لقهر الطواغيت ونشر النور .

من هذا اليوم علمت يونان من هو هذا الفتى الصغير ، ووقع الخوف في نفوسها من أن يسعى المنتصر للثأر من رجالها ، ولكنه أخلف ظنونها وفعل أمراً عجباً . لقد دعا الإغريق إلى كلمة سواء ، وأعلن فيهم أنه لا يرجو إلا صلاحهم ورفعته كل ماهو إغريقى ، بل لقد أكد لهم أنه أخوهم وواحد منهم ، وأنه يدعوهم للإنضواء تحت رايته ليقودهم إلى آسيا للانتقام من فارس والأخذ بثأر اليونان منها ..

هنالك أدرك المنكرون أن هذا الفتى إنسان عظيم .. أن وطنيته الإغريقية تطفى على أحقاد نفسه ، وأن إيمانه بقيمة الحضارة الإغريقية ونفعها للإنسانية كلها يعلو على إيمانه بقيمة الفتح ومجد النصر في الميادين ، فهو يريد أن يكسر هذه العبقرية ليثأر للإغريق الذين آذوه بالأمس وأعلنوا عليه حرباً كادت تودى به وهو بعد ناشئ صغير ، لأنه يعتقد أن حضارتهم حضارة إنسانية جلييلة ينبغى أن تذاع في الناس ، فمن قبلها طائعاً فطوبى له ، ومن أبى فلا مفر له من السيف . وسرى أنفسنا حيارى بعد الفراغ من ذكر هذا الرجل: ترى كيف كان يصير لو أن الموت لم يعاجله وهو بعد في ضحى العمر .. في الثانية والثلاثين ؟

بدأ الإسكندر سيره في المغامرة التى لم يرو التاريخ مثلها في ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد ، وكان رجاء الفتى في الفتح والغلب من القوة بحيث تروى عنه الأساطير أنه رتب شؤون الدولة في غيابه ، فوزع الإدارات على الصالحين من الرجال ، وعهد في كل قسم من مقدونيا وأملاكها إلى رجل من رجاله ، وبقي هو آخر الأمر من غير شئ ، فقال له صاحبه برديكاس : وأنت ماذا يبقى لك ؟ فقال : الأمل ! ثم نظر إلى أصحابه وقال : « نحن الذاهبين إلى الغزو لا ينبغى أن نطمع في أكثر من جزء من هذا الأمل ! دعوا الأرض يرافقوا وسيروا في ركب الآمال ! ..

بدأ فعبر الدردنيل بجيشه الصغير ، وهبط آسيا وتقدم آمناً واثقاً ، وكانت عبقرية هذا الفتى تتجلى في أمور : الدقة التامة في العمل ، والتفكير والتقدير ، ثم الجرأة والإقدام . وتسامع الفرس بمسيره إليهم فلم يحفلوا كثيراً . وكان ملكهم « دارا كودومانوس » أميراً لنا سهلاً ، بعيداً عن القدرة على النهوض في وجه الفتى العبقري المقبل عليه ، ولم يكن هو أو أحد من أهل بلاطه ليتوقعوا شراً كثيراً ، فقد كانت الدولة مترامية الأطراف ، وكان جندها أسراباً كقطع الليل ، لو جمعت ورصت رصاً لسدت منافذ الأرض في وجه الشرذمة الإغريقية المقبلة ، وكانت لهم الأساطيل ودور الصناعات على كل ساحل ؛ ولكن فاتهم أن الجند بغير قائد لا يدركون في الميدان نصراً ، وأن المال الوفير لا يجدي من غير تدبير ..

وكان من سوء طالعهم أن المقادير ساقطت إليهم هذه المرة قائداً كأمر ما يكون القواد ، ومدبراً كأحسن ما يكون المدبرون ، وفاتهم كذلك أن قائد الإغريق هذه المرة ليس قائداً مفتوناً يقبل للحرب والخراب ، وإنما إنساناً يحمل في ركابه النور ، وأن بلادهم ستجنى من الهزيمة خيراً هو أبقى لها من عشرات الانتصارات ، وأن حضارتها ستبهر الغازي وتغزوه وترغمه على أن يخنى الرأس إجلالاً لمجد فارس العظيم ! .

ربح الفرس إذ رأوا الإسكندر يتقدم في آسيا الصغرى ، فأسرعوا فجمعوا له جيشاً كبيراً ، ولبثوا ينتظرونه على ضفاف نهر « غرائيق » ، وهو نهر صغير يصب في البحر الأسود . ولم يكن للإسكندر معدى عن أن يعبر النهر للقائهم ، وقد بدا لكبير قواده أن ينصحهم بأن ينتظر حتى فجر اليوم التالى ليعبر والفرس عنه في شغل ، فقال الإسكندر بهذه اللهجة التى تنطق عن العزة والثقة : « عبرتُ الهيلسبونت (البوسفور) دون خوف ، ثم أجيء إلى جدول كهذا فأتردد وأنتظر الفرصة المواتية ؟ امض بنا يا رجل ! » . ومضى فعبر النهر في مواجهة العدو دون أن يستطيع أحد إيقافه ! .

ثم بدأت المعركة فخاضها الإسكندر بنفسه في مقدمة جنده ، يحارب بسلاحه كغيره من الجنود والقادة . وكان ذلك دأبه : يرتب الجنود ، ويرسم الخطة ، ويعهد إلى كل قائد بما يعمله ، ثم يمضى هو في المقدمة .. وكان قد درس أساليب الحرب على أنبغ منظم ومدرب عسكري أنجبه العالم القديم وهو أبامنتداس الطبيعى العظيم ، وكانت جنوده منظمة هذا

النظام البديع الدقيق الذى هو فضل الغرب على الشرق فى كل ميادين الحياة ، ثم إن دارا كان قد ارتكب الخطأ الأبدى الذى لا زال المشاركة يرتكبونه : سوء الظن بالقادة ، وبدلاً من أن يعهد بالأمر إلى القائد الكبير « ممنون الرودى » ، وزع الأمر بين قادة الفرق حتى يطمئن إلى أن أحدهم لن يثب عليه بالجند ؛ فكانت النتيجة أن تفرق الأمر جملة بين تخوف القادة وتخوف العاهل ..

والتقى الجمعان فكانت خسارة الفرس بالغة ، ولم يلبث فرسانهم أن تفرقوا ومضوا يطلبون النجاة ، يرجفون بخير الهزيمة إلى دارا ، فأثاره كل مثار ، وملكه الخوف من هذا الفتى المقبل ، فنهض من مجلسه ، ونادى رجال حربه ، وأهاب بهم أن : هلموا نرد هذا الفتى ، فلعله يحمل إلينا الموت !

ومضى الإسكندر بجيشه الصغير يخضع ولايات آسيا الصغرى ، ما خضع منها لفارس وما لم يخضع لها ، وكانت أثينا وإسبرطة وطيبة وغيرها من ولايات الإغريق قد أدركتها الغيرة، وناش قلوب أهلها الحسد من هذا التوفيق الذى قسمته المقادير لهذا المقدونى المجدود ، فبدأوا يدبرون له وينقلبون عليه ، فأخذ يجترز منهم ويتوقى شرور عمالهم وأتباعهم فى آسيا الصغرى . وقد كلفه ذلك عناء كبيراً ، ولو أنهم كانوا معه بقلوبهم لخلص لصراع عدوه الكبير ، ولكنه كان كئيبون : يقاتل العدو فى الخارج ، ويمحاذر الخونة فى الداخل !

خرج الفاتح الشاب من آسيا الصغرى ، وبدأ يأخذ الأهبة لينفذ إلى سهول الشام لكى يفضى بعد ذلك إلى بلاد الجزيرة قلب الدولة الفارسية وموقع عاصمتها كتريفون ، فلم يكد دارا يعلم بذلك حتى سارع وجمع جنده فى سهل « إيسوس » - على مقربة من موقع الإسكندرونة اليوم . وكان اختيار دارا لهذا الموقع موقفاً ، لأنه سهل فسيح يستطيع أن يفيد فيه من جموعه الحافلة ، ولو قد ثبت فيه لكسب المعركة ، ولكن سوء حظه غلب ! . فما هو إلا أن سمع بأن الإسكندر خلف حامية فى مدينة إيسوس ومضى لوجهه ، حتى جمع جنده ومضى بهم فحشرهم فى خوانق الجبال ليضع يده على البلدة الصغيرة . وما كان أسعد الإسكندر بمثل هذا النبأ ! لقد فطن بفطرته الهادية إلى أن عدوه نضا عن نفسه أحسن دروعه ، وهكذا أقبل الإسكندر مسرعاً بجنوده .

والتقى الجمعان ، فلم يستطع دارا أن يستفيد من جموعه في خوانق الجبل ، وأذهلته عبقرية الإسكندر ، فصبر على القتال حيناً تهاوى فيه خيار جنوده ، فأدار ظهره وولى مدبراً ، تاركاً قبه وفيها كنوزه وأمه وزوجه وأبناؤه .. وطارده الإسكندر ثم عاد إلى مكان المعركة ، ونزل سرادق كسرى ، فلم يكد الليل يجين حتى سمع عويلاً يتهدد إلى أذنيه من قرب ، فسأل عنه فقيل له : « أولئك آل دارا .. تسامعوا بأنك عدت من مطاردته بسيفه وطيلسانه ، فحسبوك قتلته » . فبعث إليهن بعض رجاله يطمئنونهن ويؤكدون لهن أنهن مكرمات ما عشن كما كن في حياة دارا ! .. ولو أن غيره - في سنه وفي نصره - كان مكانه مالت نفسه إلى حريم الملك الهارب ، لاسيما وفيهن ستاتيرا زوج دارا ، وهى سيدة شابة جرت بذكر جمالها الركبان ، ولكن الإسكندر كان قد أخذ الحكمة عن أرسطو ، ومن ألم من الحكمة بأيسر طرف أدرك أن الشهوات مهاوى الرجال ! .

وكان انتصار الإسكندر على دارا انتصاراً حاسماً بعيد المدى ، فمن ذلك الحين سكنت ريح الشرق ، واطمأنت بلاده إلى نوم عميق استولى على كيانها ، حتى صرخ العرب صرختهم المدوية بعد ذلك بألف عام .. لهذا كانت معركة « إيسوس » من معارك التاريخ الفاصلة ، ولهذا يبدأ المؤرخون بها عهداً جديداً ، ولهذا هلل لها مؤرخو القديم وأطبغ اليونان في ذكرها إطناباً بالغاً ، واعتبرها المؤرخون الأوروبيون ختام صراع طويل دام بضعة آلاف من السنين بين الشرق والغرب في العصر القديم .

وتلكم أوهام وضلالات اخترعها مؤرخو العصر الحديث ولم يكن يؤمن بها أو يقوها في القديم أحد ، فلم يكن أحد من أهل القديم يعرف هذه التفرقة العصبية بين الشرق والغرب . بل كان اليونان أنفسهم ، وهم ممثلو الغرب في أعين هؤلاء المؤرخين أعداء للإسكندر لا يرون إلا أنه أجنبى ساقهم بعصاه ، وكانوا - في كثير من أدوار هذا النزاع بين الإسكندر وفارس - من أحلاف فارس ، يتمنون لو انتصرت على هذا المقدونى العنيد . بل كان الإسكندر نفسه لا يكاد يعد نفسه يونانياً وإن تحدث بذلك ، إذ كان منصرفاً إلى إزالة الفوارق بين الناس وإزالة العصبية من النفوس ، فكان شامياً في الشام ، ومصرياً في مصر ، وفارسياً في فارس . وتلك هى ميزته الكبرى التى ترفعه فوق قيصر وغيره من كبار القواد!

وانحدر الإسكندر يفتح بلاد الشام ، فسقطت في يده معظم بلدانها دون كبير عناء خلا «صُور» إذ صمد له أهلها ستة شهور يصاولونه ويصاولهم ، ويحاول أن يضع يده على بلدهم فلا يرتد إلا بالخسارة ، حتى كاد يستيئس من قهرهم لما كانوا يبدونه من ضروب الوطنية والتفانى في سبيل وطنهم العزيز . ولو قد ثبتت «صيدا» و «أرادوس» إلى جانب صور ، لعجز الإسكندر عن إرغام لبنان القديم على الطاعة ، ولكن ما الحيلة والأناية من طباع الناس ؟ .. وماذا كان يجدى صيدا ثباتها إذا تخونتها حليفاتها ؟ لقد بذل أهلها من الجهد مالم يبذله أعداء الإسكندر مجتمعين ، ولكنها انتهت إلى التسليم في يوليو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

وفي هذه الفترة وصلت سفارة من دارا ، تعرض عليه نصف دولة الفرس ، ويد ابنة دازا نفسه ثمناً لحلف بين الجانبين ، فصفق لذلك بارمينيو أحد قواد الإسكندر ، وقال : « لو كنت الإسكندر لقبلت ! فابتسم الإسكندر وقال له « وأنا لو كنت بارمينيو لقبلت . ! » ، وأبى الصلح ورد الرسل وهو يقول : « قولوا لدارا إن البلاد كلها للإسكندر ، ولكنه لا يأبى على دارا شيئاً ، ولو أقبل دارا بنفسه يطلب ما يريد ما رددناه » .

ثم أقبل الإسكندر إلى مصر مسالماً لا غازياً ، فقد كان المصريون إذ ذاك في ربة الفرس ييغون التخلص من هؤلاء المستبدين الآسيويين ، الذين لم يغادروا شيئاً يحفظ أهل الوادى إلا ارتكبه . ولم تخضع مصر وحدها لهؤلاء الفرس بل خضع لهم أهل الشام وإغريق آسيا الصغرى ، وكان إغريق بلاد اليونان أنفسهم يرجفون منهم ويحالفون المصريين عليهم ، فلما دحر الإسكندر الفرس وأقبل إلى وادى النيل اعتبره المصريون حليفاً أقبل يعينهم على هؤلاء المستبدين .

وقد أقبل الإسكندر في الحق كذلك ، لم يرفع في وجه المصريين سلاحاً ولم يرفعوا في حربه بدأ ، وما إن وطئت قدمه البلاد حتى أقبل على أقداس المصريين يقرب لها ويبدى في رحابها من مظاهر الاحترام ما كان يبدىه نحو أقداس الإغريق . ولا غرابة في هذا ، فقد كانت آلهة مصر آلهة للإغريق في ذلك الحين : كان الناس في ولايات إليس وإسبرطة وأثينا يقدسون آمون ، وكانت ألوف منهم تخف إلى معبده في سيوه تستشيريه وتقرب له ، وكان هذا المعبد

ثالث ثلاثة هي أقدس ما عرفه الناس في العهد القديم : معبد إيزيس في دودونا ، ومعبد أبولو في دلفى ، ومعبد آمون في سيوه .

عبر الإسكندر بشمال مصر صديقاً كريماً ، وأزال حكم الفرس وخلف البلاد في حكم مصريين خُلص ، أو أجاناب متمصرين من أهل البلاد ، واختط الإسكندرية لتكون أخلد رمز لما انعقد آنذاك من ولاء بين الإغريق والمصريين . لم يكد أساسها يستقر حتى تعاون الفريقان على النهوض بها ، فلم تلبث أن أصبحت بعد قليل قطب رحى الدنيا وزينة العالمين ، اختلطت في رحابها حضارة الأبد المصرى البعيد وحضارة الهيلينيين ، فكانت ثمرة ذلك الاختلاط هذه الإسكندرية الزاهرة التى انتهت إليها زعامة الدنيا فى العلم والعرفان قرونًا بعد قرون !

وبارح الإسكندر مصر تحيط به هالة من جلال آمون ، وكان الإسكندر يعرف معنى هذا الشرف الذى خلعه عليه كهنة آمون ، فأمر بالأ ترسم صورته بعد ذلك إلا مزينة بقربى الكبش المقدس رمز آمون ، وارتبط اسم الإسكندر من ذلك الحين بهذا الرمز المصرى حتى أصبح يعرف فى الروايات الشرقية باسم الإسكندر ذى القرنين .. دخل الإسكندر مصر إنساناً وخرج منها فرعوناً وابن إله ! فلم تلبث المدن الإغريقية أن رفعتة إلى مصاف الآلهة ، وهكذا أضفت مصر على هذا الفاتح الشاب من جلالها ما لم يهبه إياه بلد آخر ، وما نحسب الإسكندر إلا رعى للمصريين ذلك ، فقد ظل طول حياته صديقاً كريماً لهم ، لم ينل أحداً من أهل مصر بمكرهه ، ولم يلق من جانب المصريين إلا كل ما يرضى ، وكان ذكر الإسكندرية أحبَّ الأشياء إلى نفسه ، حتى لقد زعموا أنه كان ينوى أن يعود إليها بعد الفراغ من غزوته الكبرى لكى يجعل منها عاصمته وعاصمة الدنيا .

وبارح الإسكندر مصر فى مطالع سنة ٣٣١ قبل الميلاد ووجهته فارس ، ليلقى ملكها دارا فى موقعة فاصلة تحتتم هذا الصراع الأبدى الذى طال أمده بين الفرس والإغريق . وكانت قوات دارا قد انكسرت فى معركتين كبيرتين ، ولكنها كانت ما تزال قائمة ، وكانت فى استطاعة دارا أن يجند آلافاً من الجنود من ولاياته الآسيوية ، وأن مجهزهم بخير العتاد من ثروة الإمبراطورية التى لا تنتهى . ولم يكن بقاء دارا يضير الإسكندر فى شىء ، ولكنه كان

يؤمن بأن العالم كله ينبغي أن يكون دولة واحدة ، وكان يعتقد أن أمر هذه الدولة لا يصلح إلا به ، لأن نفسه لم تكن لتحفل بعصية ، وكانت تجاربه مع الإغريق قد زهدته فيهم ، بل بغضتهم إليه ، وكان خيرة رجاله وكبار جنده خليطاً من كل جنس ..

كان فيهم من آسيا الصغرى ، وفيهم من الشام ، وفيهم من مقدونيا ، ولم يكن تعلقه بالتراث الإغريقي إلا تعلقاً بحضارة الإغريق لا عصبية لجنسهم ، وإيماناً بأن عناصر هذه الحضارة كفيلة بتحقيق الوحدة الإنسانية المأمولة ، وكان احتكاكه بأهل الشرق وحضاراتهم مشجعاً له على المضي في تحقيق هذا المطلب ، فقد رأى أنهم كالإغريق ناس ذوو حضارات وفلسفات ، ومن ثم تخلى عن كثير مما كان صغار الأحمال من الإغريق يوهمنونه به من أن هناك جنساً شرقياً خاصاً وجنساً يونانياً متميزاً ... وأن اليوناني أرفع وأعظم .

ويقص الرواة أنه كان مرة على أسوار صور يوالى الحصار ويعجب من صلابة أهل هذا البلد الصغير ، فمر به راهب مصرى ، فسأله : ما تقول آتتك في هذا البلد .. ومتى سنفتحه ؟ فنظر الراهب إليه طويلاً ثم قال : « آتتى تقول : يا إسكندر .. إن كنت تريد فتح هذا البلد لتخريبه وإيذاء أهله فلن تفتحه أبداً ! وإن كنت تريد خير أهله لفتح لك مصاريعه من نفسه ، فسل قلبك ! » فاستعبر القائد الفيلسوف الشاب وقال : « رحمك الله يا أرسطو ... لم تعرف هؤلاء الذين حططت من قدرهم كما عرفتهم أنا اليوم » .

التقى الإسكندر بجيوش دارا لآخر مرة عند « جاوجا ميلا » ، وكان دارا على ما يقال في ألف ألف ، ولكن الإسكندر لم يضطرب لمراى هذا الجحفل اللجب ، وجعل يدير المعركة في حنكة وصبر ، حتى إذا أمكته الفرصة كر بخيله فاقتلع دارا من مركزه ، وشاع الاضطراب في صفوف الفرس وولى الهرب منهم من استطاع ، ومضى دارا لايكاد يلوى على شيء فقتبعه الإسكندر حتى إزبل ، ثم عاد فدخل بابل .. وفي أوائل سنة ٣٣٠ دخل عاصمتى فارس وهما مدينتا : سوسا وپرسو بوليس (أى مدينة الفرس) .

وهكذا استقر له الأمر على عرش الأكاسرة ، فلم ينهب ولم يسلب ، وإنما تزوج ابنة كسرى واسمها ركسانا ، ونادى بقواده ورجاله وأمرهم بأن يتزوجوا من الفارسيات حتى يتم الاختلاط بين الشرق والغرب ، وحتى تخفى أوضاع الشعوبية وسخائم العصبية ، في رحاب الإنسانية الشاملة ! .

ثم عبر الدجلة وأفضى إلى هضاب إيران فاخترقها خفيفاً سريعاً في جراحة لا تكاد توصف ، ويحدث الأدلاء الذين ساروا في طلائعه بأنه كان يسير في هذه المهامه المعطبة وكأنه قد قضى حياته كلها في النواحي . وتلك كانت إحدى هباته الكبرى ، كان يحسن تصور الأرض ويحسن تقدير حركاته في بطاحتها ، ولو أن غيره كان مكانه لضل وانتهى أمره إلى بوار .

وانتهى إلى بلوخستان فهاله ما وجد فيها من إقفار ووحشة ، وأحب أن يفيض فيها بعض الأنس ، فأمر ببناء مدينة سميت « الإسكندرية » أيضاً ، فبدأ الأنس يعمر هذه الفلوات ، وابتدأت الحضارة تخطو فيها على مهل . ثم مضى حتى أشرف على البنجاب ونهر السند فعبه ، وأخذ يتقدم في هذا السهل الفسيح الذي لم يصله من الغرب قبل ذلك أحد ، ونظر أصحاب الإسكندر إلى ورائهم فهالتهم الأباطح التي مضت بهم أقدامهم في أطوائها ، واستشعروا الخوف أن وجدوا أنفسهم في آخر الدنيا ، وأنهم يمضون نحو آفاق مظلمة ربما تخاطفتهم فيها السباع والوحوش والناس ، ونظروا فإذا الهند عالم حافل يفيض بالناس ، وتقدم واحد منهم إلى القائد السعيد بما أوتيته من فتح ، وسأله : إلى أين ؟ فقال : إلى حيث لا يبقى إنسان ! فقال الرجل : فامض وحدك إذن ، إنما نحن ناسٌ لنا أهل يعطفنا نحوهم الحنين ! .. وأحس الإسكندر خيبة الأمل في هؤلاء الرجال ، وأحب أن يعبر لهم عن خيبة رجائه ، فأمر أن يحفروا له قبراً ، ورقد فيه وقال : « أهيلوا التراب على أبيكم فقد مات » ! وربع القوم فحجّلوا وجددوا له العهد على أن يسيروا معه إلى حيث يريد ..

وبرز له من أهل الهند ملك شديد يعرف لوطنه حقه اسمه بُورُوس ، وجمع جنوده وأبطاله وانتظر الإسكندر على الضفة اليمنى لنهر هيدَاشِيبِيس في قوة هائلة من الفيلة ، ونظر الإسكندر فإذا خيله لا تجرؤ على النظر إلى الفيلة ، وخشى إن هو عبر بها أن يدركها الخوف فتجمع وتنقلب بها السفن في الماء ، واستشعر من بوروس ثباتاً للقاته وإصراراً على رده ، فلجأ إلى حيلة بارعة : جعل أصحاب النفير في جيشه يطلقون النفير ، وأمر الجند أن يقبلوا ويتظاهروا بأنهم على وشك العبور ، فما أسرع ما استعد أهل الهند وتحفزوا ، فلما تم ذلك أمر الإسكندر جنده بالعودة إلى معسكرهم . وأخذ يكرر ذلك كل يوم حتى سئم الهنود الانتظار، وحسبوا أن الإسكندر يفعل ذلك كل يوم لأمر آخر غير العبور ، وجعلوا إذا

سمعوا النفير ورأوا جند العدو يقبلون إلى ضفة النهر لا يحفلون لهم ، ثقة منهم بأن الأمر واقف عند ذلك الحد ، شأنه كل يوم ..

حتى إذا كان اليوم الذى قدره الإسكندر للعبور فوجيء بوروس بالعدو وقد عبر إليه واستقام معه على ضفة واحدة ، ثم دارت رحى المعركة وقد حار الإسكندر قبلها فيما عساه فاعلاً بفيلة الهند ، حتى هداه الفكر إلى حيلة بارعة ، أشار إليها ابن المقفع في مقدمة كليلة ودمنة ، فذكر أن بوروس ساق إلى الإسكندر الجنود كأنها قطع الليل ، وأن الإسكندر هالته كثرتها وكثرة الفيلة فيها وداخله منها خوف بالغ ، فأمر أن تصنع له خيول من النحاس ، وأن تملأ أجوافها بالنفط والكبريت ، وأن توضع على عجل يجرى ، فإذا دافعت مرت سراعاً ، ثم دفعت الخيل المتوهجة في جيش الهنود ، فذعرت الفيلة وولت على وجوهها تنشر الرعب والفرع في جيش بوروس نفسه ، وهكذا تم النصر للإسكندر العظيم ! .. ترى أيعصف الإسكندر بالبطل الهزيم ؟ لا .. إنه يرضى عنه كل الرضا ، ويستقبله أحسن استقبال ، ويرده إلى عرشه راضياً مطمئناً .. ثم يغادره في أمان ! .

ويجمع الإسكندر قواده ويبلغهم أنه انتوى أن يمضى بهم إلى ما يلى ذلك من رحاب الأرض ، فيروعون ، ويرجونه أن يرأف بهم وألا يبعد بهم ، فقد شط المزار وبعدت الأوطان وطالت الغيبة ، وحاول أن يقنعهم فأبوا أن يقتنعوا ، فأجابهم إلى ما يطلبون ، وبعث من يكشف له الطريق إلى خليج فارس ، ثم استعد للرجوع .

وأقلعت به السفن من شاطئ الهند إلى خليج فارس ، ومن ثم صعد إلى بابل وأخذ يستعد لغزو الغرب كما غزا الشرق ، وأمر جنده باتخاذ الأهبة بذلك .

ولكن المنية لم تمهله : أحس في أوائل يونيو سنة ٣٣٢ بتعب مفاجيء ، فلم يمنح نفسه حقها من الراحة ، وقضى ليلة ساهرة مع كبار قواده ، وساءت حاله مع الغد ، وثقلت الحمى عليه ، وكان أولى به أن يستريح ، ولكنه قضى اليوم يدبر أمر الحملة مع قواده ، ثم أحس بعض التحسن مع الليل ، فمضى مع رفاقه يسمر ويتسلى ، فأصبحت حاله مع الغد لا تسمح له بالجلوس ، وأخذت الحمى تعلو ، وأخذ الموت يدنو ، حتى إذا أهل السابيع والعشرون من الشهر ، أدرك كل من حوله أنه يودع الحياة ، واجتمع قواده من حوله يسألونه

في لهفة : « اكتب لنا كتاباً .. قل .. لمن تخلف ملكك العريض ؟ » ... فابتسم العبقري
الذاهب ونظر إليهم نظرة ساخرة وقال : « كراتستو ! » أى « للأقوى » ! .. وكانت آخر ما
قال ، وكانت حكمة لا تصدر إلا عن الإسكندر ، إذ ما الفائدة في التقسيم والتحديد وهو
يعرف أنهم محتربون بعده على تراثه ، وأن وارث الملك هو أقواهم أراد الإسكندر أم لم يرد ،
كتب الإسكندر أم لم يكتب !

* * *

ويعدُّ ، فهذا رجل جمع الله عليه مجد الدنيا والآخرة ، وشرفه بالذكر في كتابه الحكيم ،
ورضى عنه المؤرخون فجعلوا له بين الأبطال مكاناً ممتازاً ، وبدأوا بحياته عصراً متميزاً من
عصر الحضارة الإنسانية ، استطال حتى بلغ قروناً ثلاثة ، وسمى العصر الهيلينيستى أى
الشبيه بالهيلينى . وامتاز هذا العصر بحضارة خاصة لا هى شرقية خالصة ولا غربية
خالصة ، وإنما هى بَيْنَ بَيْنَ ، فيها من هذا ومن ذاك ، وفيها هذه الفكرة الإنسانية الجلييلة
التي رسمها هذا الفتى : وهى أن الشرق والغرب ينبغي أن يجتمعا إلى لواء واحد وأن
تسودهما حضارة واحدة ، وأن يعيش أهلها إخوة ، لا عصبية ولا كراهية ، لا يخالف أحد
أحدًا فى وطن ، ولا يدابر أحد أحدًا فى جنس ، كلنا لأدم وآدم من تراب .

واليوم يجتمع الناس ، وينفضون ، وتعقد المؤتمرات وتحل ، وتعقد المعاهدات وتمزق ،
ولا يكاد الناس يتصالحون عاماً واحداً ، ولا يكاد الغربى ينسى عداوته للشرقى ، ولا الشرقى
ينسى ثأره عند الغربى لحظة واحدة .

أليس عبقرياً هذا البطل الذى استطاع - وهو دون الثانية والثلاثين - أن يعقد بين
الغرب والشرق صلحاً دام ثلاثة قرون ؟ ! .

فاتح الهند

بطليموس الثالث « يورجيتيس »

تستطيع أن تراه رأى العين ، وتستطيع أن تملأ عينيك من هيئته ، وتشبع نفسك من فتنة الرجولة في وجه ذلك الملك الشاب ، فهذا هو ذا تمثاله يقوم في متحف الإسكندرية في قاعته الفسيحة ، ينتظر أبناءه ليستفسرهم عن حالهم وليطمئن على ما فعلوا بملكه الشاسع العريض ! ولكن أبناء المصريين لا يقبلون ولا يذكرون .. إنما يقبل على البطل المتأبد في عزله جماعة من العلماء المنصرفين إلى استقصاء أخبار العصر البطلمي المجيد ، فهؤلاء يعرفون لهذا العاهل المصرى الشاب فضلاً لا يكادون يعرفونه لغيره من عواهل ماضينا المجيد الطويل ، إنهم ليطوفون به ويعجبون بقسامته ويذكرون أيامه بالخير ، ويقرأون في أساريه سر هذا الفتح العزيز الذى قام به ، ويطلقون خياله يتنقل في أطراف هذا العالم الشاسع الذى دان لهذا الفتى المصرى من طرابلس إلى حدود الهند كوش !

هذه شهادة قوم لا يكذبون ، شهادة الصادقين من أحبار مصر ورهبانها ومؤرخيها ، بل شهادات مؤرخى اليونان خصوم مصر في هذا العهد القديم ، ولم يكن هؤلاء لينصفوا مصر بكلمة إلا وهم يعرفون أنها الحق لا تُجدى الممارسة فيه ، أثبتتها هؤلاء جميعاً بالهروغليفية واليونانية والديموتيقية على حجر كانوب ، وسجلوا فيها للبطل الشاب هذا الفتح المبارك ، وشكروه على أن ردّ لمصر ما أخذ منها من زينة المعابد وطُرف الصوامع ، ورفعوه إلى مقام الفراعنة الأول ، وهامى ذى آلهة مصر ترضى عنه فتفسح له في جوانبها مكاناً ، وتلقبه بالفرعون المحسن (يورجيتيس) .

نادى الناس به ملكاً على مصر وهو يخطو بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وكان رجال القصر لا يحسدونه على هذه النعمة الوافرة ، فقد كان العرش محاطاً بالمصاعب التى لا يتغلب عليها إلا الجلد الأيّد ، فهذا دم أخته يجرى في بلاط أنطاكية إذ اغتالتها لاوديكى

زوج الملك على يد بعض رجالها ، وهذا سلطان مصر يضطرب في قبرين (طرابلس) ولا يدري إلا الله هل ستعود إلى حكم مصر أو تنفصل عنها ويستقل بها الثائرون فيها .

كانت تلك أياماً حافلة بالاضطراب والمخاوف : دويلات لاعدادها تضطرب وتتصادم في رقعة الأرض المحصورة بين قلب فارس ومجرى الدانوب ، وفي كل دويلة عدد من المغامرين يصطرون على العرش والسلطان اضطراباً رهيباً ، ومن خلف كل مغامر طائفة من الجند المحترف تشد أزره وتقف وراءه ولا تزال تدفعه من حرب إلى حرب ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، حتى تصبح حياته سلسلة لا تنتهي من الحروب والمؤامرات ، فلا تزال وأنت تقرأ أخبار العصر تتردد في سمعك أخبار المجازر المروعة والمصارع المفزعة ، كأن قلوب أهل ذلك العصر قد قادت من صخر فلم تعد تحفل للدم الجارى أو للشر السارى ، بل أصبحت هذه الأخبار تسلية أهل العصر ونُقْل السمار المترفين يتفكهون بها وهم بين كأس وطاس ، ويتندرون بها إذا مسَّت جنوبهم الأرائك في ساعات الأانس والصفاء .

وكانت الأحوال كلها تنبئ بشر محيق حينما اعتلى هذا الفتى عرش البطالمة ، كان بطليموس الثانى (فيلادلفوس) قد بلغ بالإمبراطورية المصرية حداً من السعة يكاد يستعصى معه إقراؤ السلام في أرجائها وحفظها من الطامعين ، كان قد وطد أركان الإمبراطورية في بحر إيجه ، ونشر سلطان مصر على الجزائر والشواطىء والدول المبعثرة في هذا البحر المختلط الذى كاد أن يكون محيطاً لكثرة ما ازدحم على شواطئه وفي جزائره من الدول والناس ، وكان قد ثبت سلطانه في الشام وفلسطين وشرق الأردن ، وقبض على ساحل فينيقيا بيد من حديد ، وكان قد مكَّن للتجارة المصرية في أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، فمضت سفنتا عبر البحر الأحمر إلى شرق إفريقيا ، وعبرَ بحر الهند إلى خليج فارس وما بعده ، وأما البحر الأبيض فقد كان بحيرة مصرية تذرعه سفائننا آهبة إلى حرمث تريد . وكانت زوجته « أُرْسِينُوى » الثانية واسعة المطامع بعيدة النظر ، فما زالت تربط بين أفراد بيتها وبيوت الملوك في عصرها حتى أصبح بيت البطالمة في الإسكندرية مركز سياسة الدنيا ومطمح الأنفس ، وحتى غدت مصر عند وفاة بطليموس الثانى ميزان العالم وقلبه الخافق .

ولم يكن ذلك خيراً خالصاً ، فإن تشعب أمور الإمبراطورية المصرية واختلاط روابطها قد أثقل كواهل القائمين بثئونها وجعلهم لا يكادون يفرغون من المشاكل والمتاعب ، وكانت البلاد مجهدة من أثر الجهد الذى بذلته أيام البطلمين الأولين ، وكانت أحوج ماتكون إلى فترة من الراحة والهدوء . وما كانت البلاد لتجنى شيئاً غير المتاعب من مصاهرات قلقة يراد من ورائها بسط السلطان وتأثيل الملك ..

ومن أمثلة ذلك أن أرسينوى كانت قد طمحت إلى السلطان على أنطاكية ، فاقترحت على زوجها فيلادلفوس أن ينظر فى زواج ملكها من إحدى أميرات البيت البطلمى . وكانت أرسينوى تعرف أن أنطيوخوس متزوج ، وأن امرأته أميرة مخوفة الجانب لا تسكت عن عدوان يذهب بمقامها ويحق ابنها فى العرش ، ولكنها لم تحفل . ومضى فيلادلفوس - بما عرف عنه من الوداعة والموافقة لزوجه العزيرة عليه - يمهّد الطريق لذلك ، واستطاع بعد مفاوضات طويلة أن يقنع أنطيوخوس بالتخلى عن زوجته لاوديكي والزواج بالأميرة المصرية برنيكى ابنة فيلادلفوس من زوجته الأولى ، وعرض عليه نظير ذلك صداقاً فاحشاً هو دخل فلسطين كله . فلم يكد الملك الطامح يسمع بذلك حتى تنكر لزوجه وأبعدها وحرم أولادها من العرش ، وجعله مقصوراً على ولد الأميرة المصرية . ووصلت الأميرة فى صحبة وزير مالية أبيها أبولونيوس ، واستقرت فى جو مضطرب كل مافيه ينذر بالمخاوف .

وامتدت مطامع أرسينوى إلى الناحية الأخرى - ناحية برقة - فجعلت تمهد الطريق لزواج وريثة عرشها برنيكى من وريث عرش البطالمة يورجيتيس ؛ وتمت الخطبة فعلاً واطمأنت أرسينوى إلى أن ابنها سيرث برقة ضمن مايرث . وإنما لفى ذلك إذ روعها نبأ مفاجئ : ذلك أن إماماً - زوج ملك برقة - استدعت أميراً مقدونياً بارع الحسن يسمى ديمتريوس وزوجه من ابنتها لتحبط مساعى غريمها أرسينوى ، ولكن ظنونها كذبتها ، لأن الأمير الجميل لم يكد يستقر فى برقة حتى شغفها هى حباً ، واتصلت العلائق بينه وبينها على نحو أثار الأميرة الصغيرة ، ومازالت الغيرة تأكل قلبها حتى دبّرت لأمها وصاحبها مقتلة هزت أفئدة العصر وأصبحت حديث الناس : أغلقت عليها الحمام وحرقتها بالماء الغالى حرقاً ، ثم مدت يدها إلى أرسينوى تستعيد خطيبها القديم يورجيتيس ، وتقرر هذا وانعقدت

الأواصر بين أميرة يجرى دم أمها على قدميها وأمير طيب لا يدري إلى أين يُسار به .

وهكذا تعقدت الأحوال وتواترت المشاكل على نحو جعل سياسة الأمور حملاً لا يكاد ينهض به إلا الفحل الشديد ، ومضت أرسينوى وزوجها إلى بارثهما مغلين ذنب الضب هذا ليورجيتيس ، يحله كما يشاء .

وكان الناس يتوقعون أن يتخلى يورجيتيس عن ذلك كله ، لأنهم عرفوه شاباً هادئ الطبع سهل الخلق ، وكانوا يرون أنه منصرف عن تعقيد الأمور على هذا النحو النابغ الذى كلفت به أمه أرسينوى ، وأين له الوقت ليصفى حسابه مع أنطاكية وأصحابها ، ومع مقدونية ورجالها ، ومع دويلات آسية الصغرى وجزائر الأرخبيل ؟ إن الأمر ليحتاج إلى هيئة من الرسل والسفراء والمتآمرين يجعلون همهم السهر والتدبير ، وإن الأمر ليحتاج كذلك إلى مال وافر تملأ به الأكف هنا وتقفل به الأعين هناك ، وبغير هذا لن يستقيم الأمر أبداً ، ويظل التعقيد يفضى إلى تعقيد ، والاضطراب يؤدي إلى اضطراب .

ولكن يورجيتيس كان يطوى في نفسه نفساً أخرى لم يطلع عليها من حوله أحداً . كان يعرف أن العقدة إذا استعصى حلها وتداخلت خيوطها لم يبق لها من حل إلا قطعها جملة ، وأن عقد السياسة لا يحلها إلا سيف بتار في حده الفصل بين الجد والهزل . وكان - كالإسكندر - امراً سيف لا هيابة يؤثر التدبير الخفى الدليل على ضربة تمز النفس وتعصف الجبان وتبدد المخاوف ، وكان - كتحوتمس الثالث - مصرياً عزيزاً ، وكانت قد تواترت على سمعه أنباء نقلها رهبان مصر وقساوستها عن سرقة تحف المعابد المصرية ونقلها إلى آسيا : سرقها غزاة الفرس وحلواها معهم إلى بلاطهم في بلاد الرافدين ، فما سمع بطليموس ذلك حتى استقر رأيه على غزوة فريدة تمضى بجند مصر في آثار الإسكندر يكسر بها حدة الطاغى ، ويعلم الناس بها أن فرعون مازال فرعوناً ، وأن جند مصر مازالوا على الأهبة إذا اضطرب الأمر وادهمت المشكلات ، ولم يطل أوان التمهيد والاستعداد ، فما هو إلا قليل حتى استقام جيش مصر واستعد ليعيد على سمع الدنيا سيرة تحوتمس ورمسيس .



فصل يورجيتيس عن مصر ، ودخل فلسطين ، وتقدم في بلاد الشام حتى اقترب من

أنطاكية ، فاكتمسحها اكتساحاً ، وبهذا انتقم لأخته وأدب الأغرار من أنصار أنطيوخوس وردهم إلى الصواب بعد أن قضوا العمر يشدون جبال المؤامرات ويرخونها ، يقامرون بالمال مرة وبالعرش أخرى ، ويجيلون الحياة بهذا العبث إلى فوضى لا مخرج منها ، ضرب يورجيتيس ضربته ليعلم الناس أى ملك ملك مصر ! ثم بارح الشام وأفضى إلى العراق فأقر به سلطان مصر . وأسرع إليه ملوكه وأمراؤه يبسطون له الطاعة ويمجدون له العهد الذى كانوا أعطوه لتحتومس الثالث ملك مصر ، حين وصل « نينوى » على ضفاف دجلة وضرب معسكره خارجها . وهناك تلقى يورجيتيس طاعة فارس وأهلها ، ولم يقنع بالوقوف عند حدود العراق ، بل خطا إلى فارس بلاد الأكاسرة وعرين الأسود ، غير راهب ما تناقله الناس عن قوة الفرس وشدة ملوكهم ، وقاد جنود مصر ومضى يذرع هضبة إيران لا يخشى غضبة أهريان ولا بطشة مازدا ، حتى إذا فرغ من فارس أوغل في قفار باكتريا (بلوخستان) ثم أشرف على السند واكتسحها ، وأدرك جبال الهندوكوش .. وفي ظلها جلس يستريح ! ..

هنالك أصبح جنود مصر سادة في بلاد السند ، وجعلوا يرسلون الطَّرف في هذه البلاد التى بلغ الإسكندر مبلغ الآلهة بفتحها ، وجعلوا يفكرون في هذا العالم الغفير الذى دان لسلطان مصر ، ويتصورون هذه البوادي الشاسعات التى عبروها مع قائدهم العَظيم ، وأخذ يورجيتيس يفكر في تنظيم هذا الملك المترامى ، وجمع حوله القادة المصريين يسائلهم رأيهم ويطلب معونتهم ، إذ كان يعرف فيهم رأياً طيباً ونظراً صائباً .

وترامى إلى سمعه أن أهل برقة (طرابلس) بدأوا ينشقون على ملك مصر ، وأن بعضهم طمع في الاستقلال . وبرقة على حدود مصر . من وثب بها هدد الإسكندرية وأرض النيل ، وكان يورجيتيس يعلم أن أهل برقة لا يشقون عصا الطاعة على مصر بنازع من نفوسهم وإنما بدافع من عدو في مقدونيا أو غير مقدونيا ، وكان يعلم أن هؤلاء الحاقدين لن يهدأ لهم جنب حتى يشفوا غلاً تأصل في نفوسهم من مصر ومجدها ، وخشى إن هو أقام ينظم هذا الملك البعيد أن يفجأه العدو القريب ، وأحس أن هذه الغزوة قد كسرت شوكة الباغى وأعادت اسم مصر إلى مكانه من العزة والرفعة ، وألا ضير عليه أن يعود أدراجه كما عاد الإسكندر سيد الأبطال بعد أن أوغل بجنده في هذه القفار . وأسرع رجال الهند يخطبون وده

ويؤكدون له أنهم مقيمون منذ الساعة على الولاء لبلد الفراعنة ، وعاهدوه على أن يرسلوا إلى بلاطه السفراء يكونون بجانبه ضمناً للطاعة وعنواناً على الولاء .

وقرت عينه بما رأت طوال هذه الغزوة من عزة اسم مصر وبطليموسها ، وأشار عليه قواده ونصحاؤه بالعودة ، فقد بلغ وبلغوا من العزة ما أراد وما أرادوا ، فأذن لجنده في الاستعداد للرحيل . ومضى الجيش المنتصر بعد حين نحو أرض الوطن العزيز يحدوه الظفر والتوفيق ، وكر بجمعه يقطع الطريق إلى مصر ، وكلما نزلوا بلداً أمر بما كان قد سرق من كنوز مصر في غزوات آشور وفارس أن يُرد إليها ، ومضى بطليموس في طريقه حتى دخل مصر فاستقبله أهلها وكهنتها أحفل استقبال .

ولم يكد مقام الملك يستقر حتى نادى جنده وقواده وأمرهم بالتأهب للسير معه إلى برقة وطرابلس ، فأخذ ثورتها وعاد عزيزاً منصوراً .

هنالك بلغ إعجاب المصريين بهذا الملك مبلغاً عظيماً ، وتردد حمده على ألسنتهم ، واجتمع الكهنة والأخبار وقر رأيهم على أن يكتبوا للملك وثيقة يسجلون له فيها فتوحه أسوة بالفراعنة الأولين .

فلما عقد كهنة مصر وأخبارها مجمعهم الدينى فى مارس من سنة ٢٣٧ قبل الميلاد عقب عودة يورجيتيس من هذه الغزوة البارعة ، سجلوا شكرهم له فى وثيقة باقية على الدهر تعرف بوثيقة كانوب ، قالوا فيها :

« إن الملك بطليموس بن بطليموس الثانى فيلادلفوس ، وأرسينوى (الإلهين الأخوين) وبرنيكى أخته وزوجته (الإلهين الخيرين) يجزلون دائماً للمعابد الوطنية نعماً كثيرة عظيمة ، ويزيدون مظاهر الإجلال للآلهة ، ولا يدخرون وسعاً فى العناية بأبيس ومنفيس وغيرهما من الحيوانات المقدسة المشهورة مهما كلفهم ذلك من النفقات ، وتعيين الكهنة اللائقين . وإن الملك - بعد قيامه بحملة فى الخارج - أعاد إلى مصر التماثيل المقدسة التى كان الفرس قد أخذوها منها .. » ثم تمضى الوثيقة فى سرد الأعمال الطيبة التى قام بها الملك نحو رعاياه ، من أنه نشر السلام فى البلاد ودافع عنها ضد أعدائها ، وأقام فيها حكومة رشيدة . وعندما قل منسوب الفيضان عن مستواه العادى ولم يسد الماء حاجات البلاد ، نزل الملك والملكة

عن جانب غير قليل من دخلهما لإنقاذ حياة الكهنة والأهالي ، وأحضر القمح من سوريا وفينيقيا وقبرص وغيرها من البلاد ، وإزاء كل هذه الخدمات قرر الكهنة أن تزداد مظاهر الإجلال التي تقدم للملك والملكة وأبويهما وجديهما ، وأن يحمل الكهنة في كل المعابد لقب « كهنة الإلهين الخيرين » ، إلى جانب القابهم الأخرى^(١).

واستمر يورجيتيس يحكم مصر ستاً وعشرين سنة لم تحمد له خلالها في الفتح همة ، ولم يقعد به عن الغزو سبب ، وكان أسطوله لا يكف عن التجوال بشواطئ البحر الأبيض عازياً فاتحاً ، وكانت مصر تملك أيامها قبرص والشام وأجزاء من آسيا الصغرى ونواحي كثيرة في بلاد اليونان ، عدا طرابلس وإثيوبيا ، وكانت مصر مدار سياسة العالم وصاحبة الكلمة المسموعة فيه ، إذ كانت أقوى بلاد الله جنداً وأعزها نفراً وأرقاها شعباً وأوسعها علماً. كانت الإسكندرية مركزاً من مراكز العلم التي يفد إليها الطلاب والأساتذة من كل حذب وصوب ، ولعل القارىء يعلم أن إراتسثينز العالم الرياضى الذى قاس حجم الأرض كان ضمن المستقبلين حين عاد يورجيتيس من حملته على آسيا ، ولعله يعلم كذلك أن مصر كان لها سفراء في روما الناشئة وقرطاجنة الغنية القوية وبلاد العرب والهند نفسها، فقد روى المؤرخون أن بطليموس الثانى أرسل ديونيزيوس ليسفر له في بلاط الهند ، وأن هذا السفير صنف كتاباً عن هذه البلاد .

وكانت في الإسكندرية منارة يستضيء بنورها الغادى والرائح في البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن هذا بالأمر الذى يستكثر على دولة البطالمة ، إذ لم يكن أحد يشك في أن مصر أرفع بلاد الله ذكراً ، وأعلاها شأنًا . وأن أرضها مهبط الحكمة وشاطئها شاطئ النور والعرفان.

(١) عن النص الوارد في كتاب « تاريخ مصر في عصر البطالمة » للدكتور إبراهيم نصحي ، ج ١ ص ١٩٦ .

obeikandi.com

يوم من أيام مصر الخالدة واقعة رفد

وكم لمصر من أيام بيض ! وكم لها من معارك حاسمة ! وكم للمصرى من فخر من ميادين الحروب ، وكم كان له من نصر في فترات اشتدت فيها الخطوب وتواترت فيها الأهوال ! وهل مصر إلا بين حجرى الرعى ؟ ما عيس القدر لأهل الأرض إلا امتحن أهل مصر امتحاناً عظيماً ، وما اشتدت الخطوب يوماً إلا اجتمعت على مصر منها شراذم وجموع ! وهل تُخلق بطل أو بعث نبي إلا مرَّ بنا وحيانا ، أو أرسل إلينا من لدنه من يدعوننا إليه ويحاول كسبنا إلى صفه ؟ وهل قامت حرب إلا رمينا بسهمنا فيها ؟ وهل عصفت ريح أو ثارت سموم إلا طاف بمصر منها طائف وعصف بأرضها من شرها عاصف ؟ .

نعم .. ولم نخلف للحياة في يوم ظناً ، ولم نخش أحداثها ، ولم نخرج من ميدانها ونتفرق بدداً كما خرجت قبلنا أمم ، وكما تفرقت بعدنا شعوب لا يعلم إلا الله مثواها . وربما كان هذا سبب كل بلوانا ، فقد وُلدنا في فجر الحياة واستيقظنا والأمم بعد في ضمير الغيب ، ودرجنا نتحسس طريقنا إلى الحياة ونقود الأمم من خلفنا ، ونخير لنا القدر هذا الركن الخطير بين أرجاء الدنيا ، فلم يكد ساعدنا يشتد ، ولم نكد نهيم لأنفسنا وطنا زاهراً منظماً حتى تطلعت العيون إلينا وثارَت في النفوس عوامل الحسد ، وناشتها دواعى الطمع ، فكان علينا أن نذود العدا ، ونرد الحاسدين ، ونؤدب الطامعين .

وانقضت علينا في ذلك عشرات من القرون : نشأ أهل الشرق القديم عيالاً علينا يحاولون اللحاق بنا ، فإذا أعييتهم الملاحقة لجأوا إلى العداوة ، فما زلنا ننافحهم في جبال الشام تارة وفي سهول بلادنا تارة أخرى حتى أطاعوا وسكنوا ومضوا في ركبتنا . ثم أقبل اليونان ، واشتدت سواعدهم ، فما راعهم إلا ذكر مصر على كل لسان ، فملكتهم الغيرة -

واليونانى القديم غيور - واحتدم الصراع بيننا وبينهم ، صراع فى الميادين وصراع فى عالم الفكر والآداب ، وما من مفكر إغريقى إلا كان له الغمز المستور أو الهجوم الصريح بغية الكيد لبلدنا .

وكان من سوء الطالع أن كتاباتهم انتهت إلى الأجيال التالية من بنى الدنيا ، فعبرت مثالبهم لمصر الأجيال ، وحسبها الناس بعد ذلك حقائق ، وما هى إلا بدوات المنافس الكاشح . وانضافت إلى ذلك كتابات بنى إسرائيل فى مصر ، وكلها ذم وهجوم . ولما انقضت قرون ، واختفت لغتنا القديمة ، وغابت معالم مجدنا تحت ركام السنين ، لم يبق لدى الناس غير ذلك الوصف المشوه يتناقلونه عنا ، حتى خفى على الناس فضلنا وغابت عن الذكر معالم مجدنا .

وجاءت أعصر الإسلام فنسيت مصر نفسها ، وانصرفت إلى الدين الجديد وما يتصل به من ثقافة ، تتفهمها وتنشئ لنفسها منها كياناً جديداً ، فضاء مابقى من معالم شخصيتها القديمة ، وحسبها العرب ومؤرخوهم أمة عاطلة عن كل مجد تالد ، وتعتمد هؤلاء المؤرخون إهمالها وانصراف عن ذكر محاسنها وأفضالها ، فغدوت تقرأ الواحد منهم لا تكاد تجد فى صفحاته اعترافاً بفضل أو تقديراً لجهده ، بل لو أن أحدهم اكتشف لمصرى فضلاً لأغمض عنه عينه واستطرد إلى كلام آخر ، بل حرص بعضهم على أن يذكر المثالب ، حتى غدوت إذا سألت قارىء العربية عن مصر لا تكاد تجد على لسانه إلا آياتاً للمتنبى وغمزات لابن خلدون وخرافات للمسعودى ومبالغات لعبد اللطيف البغدادى .

ولم يتبين للناس فضلنا إلا منذ حين ، حينما انجاب الركام عن العز الدفين وتحدثت النصوص عن المجد المؤثل ، ومضينا نناقش الإغريق ، وندقق فى كتابات بنى إسرائيل ، وننقب فى كتابات العرب ، حتى تكشفت لنا آلاء من الفضل تعفينا على الأقل من أذى المتنبى وتفلسف ابن خلدون .

وقد يسلم لك البعض بأن لنا فى الحضارة أثراً ، أما فى الحروب فقل بين الناس من يعرف أن مصر كانت فى فترات طويلة من تاريخها المديد أمةً حرب ونصر وكفاح ، وأن لنا فى الأيام الغر الخوالد ، ولنا فى أطوائها السبقات الزهر الأوابد ؛ وهل ينسى الزمان «مجدو»

و « قادش » و « رفح » و « حطين » ؟ . وهل تعفى الأيام على المنصورة وعين جالوت وحمص وقونية ونصيبين ؟ . فهذا حسبنا في العصور القديمة والمتوسطة والحديثة ، ولا حاجة لنا إلى فضل من فخر نثق عنه في بطون الكتب ، ولا تعوزنا البينة على بقية من مجد مستتر في أطواء الروايات .

ومن من الناس يكابر في عظمة انتصار حطين ، حيث رددنا فيه على العالم الإسلامي اعتباره واستعدنا له بيت المقدس وكسرنا حدة الصليبيين بعد أن كادوا يأتون على الشرق ومافيه ؟ وهل هناك من يتردد في تقدير مواقع حمص وعين جالوت : أنقذنا فيهما الدنيا من المغول بعد أن كادوا يغرقونها في طوفان من الخراب والدمار ؟ وهل من يكابر في أننا نهضنا أول من نهض من أبناء هذا الشرق الإسلامي نريد تحريره من ربقة الأتراك القدماء ، وناديننا أول من نادى بإنشاء دولة واحدة للعروبة وأهلها ، وخضنا المعارك في سبيل ذلك ؟ . فهل يشك بعد ذلك أحد من الناس في أننا أبناء حروب ورجال كفاح ؟ ما دعا الداعي إلا لينا ، وما أتيت لنا الفرصة إلا انتضينا السلاح وأقدمنا .

وعسى من يقول : لم تقوموا بهذا كله وحدكم ، إنما قادكم في كل مرة قادة أجنب ، ولولاهم ما كسبتم معركة ولا خضتم ميداناً ، وهؤلاء قادة على مصر وأهلها ! .. والجواب على ذلك يسير جداً : إن القومية أمر حديث في تاريخ الإنسانية ، أمر جد منذ قرابة القرن ، وكان الناس قبل ذلك لا يفرقون بين مصرى وغير مصرى . فلم يأنف الإنجليز مثلاً أن يحكمهم غزاة من فرنسا يتكلمون الفرنسية ويعيشون فرنسيين سنوات طوالاً ، ولم يبالوا أن يترع على عرشهم ملوك من أصل هولندى ، ولم يتحرج الفرنسيون من قيادة نابليون لهم وهو إيطالى الأصل ، ولم يتصل الألمان من بيتوفن وهو هولندى الأصل ، أو من فون مولتكه وهو دانيمركى ، وهكذا .. إنما كانت العبرة بالبلد الذى نشأ فيه البطل وباسمه كسب النصر أو أدرك المجد ، ولو أن صلاح الدين أقام في غير مصر لما أصبح صلاح الدين ولما تهباً للتاريخ نصر حطين .

ثم أعود فأقول إن هذه الانتصارات الظاهرة ليست هى كل مجد تاريخنا ، فما خفى كان أعظم ! وما يكاد الإنسان يمتحن الحوادث ويستجلى المستور حتى تتكشف له آيات من

قدرة هذا الشعب وحسن استعداده للنهوض بالمجد وما يتطلبه المجد من توضيحات ومطالب .

ولكن المكابرين يكابرون ! فدوهم حديث نصر رفع ، فهو يكفيننا مؤونة البرهان ويغنيننا عن طول التبيان ، ولسنا مزيدين عليه حرفاً ، وإنما سننقل لهم أحاديث الرواة والمؤرخين ، وهى على بساطتها كفيلة بأن تكشف عن كثير (١) .

* * *

انقضت أيام البطالة الثلاثة الأولى ، ومضت انتصاراتهم مع أمس الدابر ، وأقبلت على مصر أيام من الخمول والإنحدار يقترن ذكرها بحكم بطليموس الرابع المعروف بفيلوباتر أى محب أبيه ، وكان فتى متبطلاً رقيقاً مسرفاً فى الترف ، لم تهبه المقادير من سمات الملك ما يستطيع به أن ينهض بأعباء دولة فى سعة مصر البطلمية ، ولم يهبه الله من الملكات ما يعينه على النهوض بما كانت تفرضه الظروف على عواتق الجالس على عرشها من مطالب ، وكان قد ترك قياد الأمور إلى نفر من شر من يبتلى بهم شاب فى مطالع رجولته ، على رأسهم ثعلب مستهتر يسمى أجاثوكليس وأخته العابثة أجاثوكليا وأمهما أويانتي ، ولم تكن خيراً من بنتها فلم تلبث آمال المصريين والإغريق أن خابت فيه ، وكانوا يرجون منه الكثير فى حياة أبيه ، فقد أخذ العلم عن الرياضى الأشهر إراتسثيز ، وتأدب على يد الفيلسوف الرواقى سفايروس ، وكان حرياً أن يقود الدولة بعقل الرياضى وقلب الفيلسوف ، ولكنه مضى ينفق الوقت فى إنشاء خمريات وقصص عابث ، فلم يعد للناس بعد ذلك فيه رجاء ، ولم يكلف نفسه عناء حرب ولم يحملها أعباء سياسة ، وإنما استناب لبطانة السوء هذه ، وصار القصر كما يقول الأستاذ بيفان : « مباءة للرديلة ومجمعاً للداعرين والمترفين والمفسدين » ، وأسلم الملك قياده لهؤلاء ، حتى نفر منه المخلصون وباعدوا بينهم وبينه ، وأنكره أساتذته ومؤدبوه : فهذا فيلسوف العصر وعالم المصر إراتسثين معلمه الذى اهتدى إلى كروية الأرض وقاس حجمها قبل الميلاد بأكثر من مائتى سنة، هذا هو يتباعده عن الملك اللاهى

(١) كان لا بد من هذا التقديم المطول بعض الشيء حتى تتضح أهمية هذه المعركة وأمثالها فى تاريخ مصر ، وقد جرت عادة المؤرخين بأن يعروا عليها مرأ سريعا غير منبهين إلى أهميتها فى تاريخنا القومى .

لا يريد أن يتنزل نفسه معه ، وكان الملك لا يذكره إلا ركبته بالسخرية وأباح مقامه للسفلة والأوغاد يسخرون منه كما يشاءون.

وهذا حاكم الشام الأمين نيكولاوس يرقب أنطيوخوس الثالث ملك مقدونيا ويتخوف من أطماعه على أملاك مصر في الشام ، ويستنجد بفيلوباتر وبوزيره سوسيبوس فلا ينجده منهما أحد ، ويرى بعينه خيانة زميله ثيودوتوس وتسليمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية لعدو مصر الطامع في أرضها وخيرها ، ويتوقع لنفسه مثل هذا المصير ، ويرجو أن يتداركه أصحاب الأمر في الإسكندرية بالعون ، ولكن أين من يسمع وأين من يجيب ؟ إن الملك ووزيره في شغل بأشعار ينظماها في أودنيس وأنخاب يشرابها في معابد ديونيزوس ..

إنه ليشقى بهذا البلاء شقاء عظيما ، ويبدل قصاراه لإصلاحه بما عنده من الجند القليلين فلا يوفق إلى شيء ، ويفطن أنطيوخوس وقواده إلى ذلك فيسرعون الخطى ويتقدمون في أراضي مصر في الشام حثيثاً ، وتنحدر جيوشهم فتطرق أبواب فلسطين وهي حد مصر في ذلك الزمان . ويستنجد القائد ويلح في طلب النجدة ، فلا يصله شيء . ويكتب إليه سوسيبوس أن يشيع أن جيش مصر واقف على الأهبة عند بلوزيون ، وأنه جيش عظيم مستعد للقاء كل عدو ، وتنفع الشائعة في إيقاف العدو فترة من الزمان ، أخذ بعدها في التقدم من جديد ، فأرسل نيكولاوس يستنجد مرة أخرى ، ويعلن أنه لن يستطيع بعد الآن شيئاً ، وأن الطوفان يوشك أن يعم إذا لم ينهض بطليموس وأصحابه ..

هنا تصك الشكاة آذان النائمين فيستيقظون بعد طول النوم ، ويتبينون فداحة الخطر ، فيمضون يتدبرون في الأمر بعد أن اشتد ، ولم تعد تفلح في علاجه الأكاذيب . ويسرع فيلوباتر إلى منف ومنها إلى بلوزيون على حدود بلاده لكي يرقب الأمر بنفسه ، ويمضى سوسيبوس وزيره يجمع له الجند بالمال من بلاد اليونان ومن مصر ، ويشغل العدو بمفاوضات غرضها إيقاف تقدمه ريثما يكتمل له جيش يستطيع به الثبات ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن من أعدهم من الجند لا يكادون يكفون لإيقاف الخطر المائل ، وتملكه الحيرة ، ويخشى أن تحيق به الهزيمة . ويشد الضغط على الحدود ، وترامى الأنباء ، ويرجف المرجفون ، وينظر فيلوباتر إلى هذا القليل من الجند الذي يحاول أن يسد به ثغره ، وتصيبه الحيرة ، ويزداد الضغط عليه ، ويتفرق وزراؤه ، ويصيح الصائح : ليس من الموت بد !

ولو أنه أصغى إلى ما يتحدث به الناهيون وذوو البصر من أهل مصر إذا خلا بعضهم إلى بعض ، لزال حيرته ولُفِّرَج عنه همه ، فقد كان هؤلاء يتعجبون من أمر بطليموس ووزرائه الذين يبعثون في كراء الجند من أراضى الدنيا والجند عندهم كُثُرٌ ينتظرون الإشارة ليهبوا للزيادة عن حياض بلادهم أسداً كاسرة . لقد أهمل هؤلاء البطالة أمرهم من يوم صارت إليهم هذه البلاد ، حاسبين أن الحرب للإغريق ومن جرى مجراهم ..

كانت دعايات اليونان قد ملأت أذانهم فاستقر في أذهانهم أن المصرى قد مضى يومه ، وأنه دخل منذ زمان في عداد الرعية التى لا يؤذن لها في حمل السلاح ، فلما اشتدت الأزمة وازداد الخطر تهامس الكهنة في أروقة المعابد وجعلوا يتساءلون عن السبب في هذا الإهمال الذى يصر عليه البطالة ، وتسامع سوسيبيوس بذلك فأبرقت في خاطره بارقة أمل ، وأسرع إلى فيلوباتر يحمل إليه النبأ فتهلل له ، وأمر بالإسراع في تنفيذه .

وأقبل جند مصر ، وأخذوا مكائهم في المعسكرات ، وبدأ التدريب ، فلم تمض أشهر حتى استقامت منهم فرقة تبلغ العشرين ألفاً ، كانوا هم قلب الجيش المدافع وصخرته التى تتحطم عندها مطامع العدو ..

وفي الثانى والعشرين من يونيو سنة ٢١٧ قبل الميلاد ، التقى جيشان في ميدان فسيح جنوبى رفح . وقد كان قواد بطليموس يودون لو انتظروا العدو في أرض مصر ، ولكنهم لم يكادوا يرون أجناد الوادى في القلب يتحرقون شوقاً للقاء العدو ، حتى تشجعوا واشتد عزمهم وعبروا سينا ، وذهبوا يلقون أنطيوخوس جنوبى فلسطين . ووقف عشرون ألفاً من أبناء هذا الوادى أمام عشرين ألفاً من خيرة المقدونيين واليونان : من كل ماجور ضُرِّى في ميادين القتال وازرق نابه في قراع الأسنة ، ومن حول القليلين فيلة وفرسان وحمة دروع ، وتولى الملكان قيادة الفرسان . وبدأت المعركة ، وانقض أبناء مصر على خصوم مصر انقضاضة يعرفها التاريخ فيهم ، وحمى الوطيس واشتد الطعن ، فإذ المقاتل اليونانى يولى طالباً النجاة ، وإذا جند مصر يضعون السيوف في قفاه بين دهشة فيلوباتر وإعجاب الدنيا كلها ، وإذا بهؤلاء الفلاحين الذين أقبلوا من بيوتهم منذ قليل يهزمون سادة الميدان هؤلاء ، وكان لا ينازعهم فيه خلال هذه القرون كلها منازع .

من ذلك اليوم فتح المصريون أعينهم ، وأخذوا ينظرون إلى البطالة ومن التف حولهم
نظر العزيز المنتصر الذى كسب فى يوم واحد ما خسره فى عشرات السنين ، وشعر البطالة
واليونان أن هذا شعب له خطره ، وأن فيه من القوى ما هو جدير بأن يرفعه إلى المقام الأول
بين الأمم . ولكن كيف ؟ كيف يمضى الجنود من غير قائد ؟ وكيف ينهض الشعب من
غير رائد ؟ ..

هذا فيلوباتر لا يكاد يدرك النصر حتى يعود سيرته الأولى : خمر وعبث ، وهذا وزيره
سوسيبيوس يتخوف نهضة هؤلاء المصريين ويتوقع قيامهم فى وجهه كلما أراد أن يعود إلى
سيرته الأولى فيهم ، فهو يهملهم ويتوفاهم كأنهم عدو يُتَقَى ..

وهذه دولة البطالة كلها فى انحدار ، ولن يلبث البيت البطلمى نفسه أن يتفرق ويمضى
كل فريق منه فى طريق ، وتهبط البلاد هذا المهبوط الذى ينتهى بها إلى أيدي الرومان ..

obeikandi.com

ريجولوس يفى بوعدده

استطارت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، وازدادت الأمور بينهما حرجاً ، وذهبت كل منهما تتخذ الأهبة لاستئناف هذا الصراع الذى دام ثلاثة قرون ، وكان حديث الدنيا كلها زماناً ، ولم تحمد نيرانه إلا بالقضاء على قرطاجنة قضاء مبرماً . كانت الاثنان جارتين بينهما ما بين الجارات المتنافسات من بغض وعداوة ، واجتمعتا فى غرب البحر الأبيض ، فلم يكن هناك شك فى أن إحداهما لا بد أن تحلى المكان لتقوم الأخرى منفردة بالعز والسلطان ، وكانت أول الأمر متعادلتين فى هذا الصراع المستعر ، لكل منهما من أساليب القوة وألوان الاستعداد ما ينبىء بأن الصراع بينهما ممدود إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وتلك سيرة البشر بعضهم مع بعض من مطلع التاريخ إلى يومنا هذا ، وستبقى كذلك إلى أن يميل ميزان الأرض ومن عليها : لا سلام بين نذنين ، ولا عدالة بين قوى وضعيف . لا يزال الندادن يلتمسان أسباب الخصومة ، ويسرفان فى سوء الظن حتى تكون الحرب ، ثم لا يزال الصراع بينهما يتجدد على الأيام حتى يخفى واحد منهما وينفرد الآخر بالسيادة . لن تغير الحضارة من هذه الخصلة ، ولن يخفف العلم من غلواء البشر .

دبر الرومان للأمر تدبيراً ، وجرى فى بالهم أن يأخذوا قرطاجنة أخذاً ، وأن ينزلوا بها ليلاً فيغادروها خراباً يباباً وأهلها نيام . وأعدوا لهذا الأمر عدته ، وجمعوا أجنادهم ، وحلّوهم فى السفن إلى صقلية حيث كانت معاقل القرطاجنيين الأمامية ، ونهضت سفن قرطاجنة لردهم فانهزمت انهزاماً قبيحاً عند رأس إيكويوموس : استولى الرومان على أربع وستين سفينة بملاحيها وغرق مائة ، وفرت الفلول الباقية إلى إفريقية ترجف بهول المصيبة .

وتوقع القرطاجنيون إقبال الرومان إلى إفريقية ، فسارعوا يتخذون الأهبة للقائهم ، ولكنهم انهزموا على مقربة من عاصمتهم قرطاجنة نفسها ، وكاد أمرهم يضيع لأن رعاياهم

وثبوا بهم ، وحسبوا الفرصة أقبلت ليحطوا عن أكتافهم سلطانهم . وتخرج أمر القرطاجنيين بين العدو المقبل من الخارج والعدو المضطرب النائر في الداخل ، واضطروا إلى طلب الصلح ، فتشدد الرومان في شروطهم تشدداً نفّر القرطاجنيين ، وبعثهم إلى الحرب من جديد ، وساعتفتهم المقادير بقائد إسبرطى مجرب هو إكزانتيب ، تولى تدريب جندهم وإعدادهم حتى استطاع في أمد قصير أن يضع في الميدان جيشاً حسناً متلهفاً إلى الحرب ، ووقف به دون قرطاجنة ينتظر العدو المقبل .

وأقبل الرومان مستخفين بالليل يودون لو فجأوا أهل قرطاجنة وهم نيام ، ولكنهم لم يلبثوا أن ارتدوا على أعقابهم بهزيمة لم تخطر لهم ببال ، ذلك أن إكزانتيب كان على الأهبة ، وكان قد احترز في موضعه وكمن الكمائن ، فما هو إلا أن أوغل الرومان حتى احتواهم القرطاجنيون وانهاوا عليهم انبيال من لا يئىى ، فتفرقوا بين قتيل وأسير ، وكان في الأسرى قائد الرومان نفسه : ريجولوس ..

كان ريجولوس قائد الرومان في هذه الحملة الإفريقية شيخاً من هؤلاء الذين نلقاهم كثيراً إذا ظالعنا تاريخ الرومان ، شيخاً من طراز شيشرون يؤمن إيماناً لاشك فيه بأن الرومان سادة الدنيا وخيرٌ من فيها ، ويعتز بروما وتلاها السبعة اعتزازاً بالغاً ، تربى في ميادين الحروب وارتقى في المناصب حتى انتخبه الرومان قنصلاً ، أى قائداً للجيش .

وكان الرومان إذا أقاموا قنصلاً أقاموه لمدة عام يتخلى بعده عن منصبه لمن يخلفه ، فألى ريجولوس على نفسه ليفرغن من أمر قرطاجنة في عام واحد ، ومضى يبذل الجهد في الحرب ، فطرد القرطاجنيين من صقلية ، وهزمهم في البحر ، ثم مضى يتبعهم في عقر دارهم ليستولى على عاصمتهم ويفرغ منهم ، فلما انتصر عليهم انتصاره الأول عرض عليهم من شروط السلم ما حسب أنه يكسر ظهورهم ، فرفضوا الشروط على ما رأينا ، ونفروا إلى الحرب من جديد . وسارع ريجولوس إليهم ، ولكن الحظ خاناه وابتلاه بهذا الداهية الإسبرطى ، فخبب ظنونه وقضى على آماله وعاد به في رباط الأسر مهزوماً .

واستكان الرجل للأسر ولبث ينتظر قضاء أعدائه فيه ، وكان القرطاجنيين كالرومان قساة : إذا وقع في يدهم عدو أوفوا على الغاية في عذابه ، فلبث ريجولوس ينتظر عذابه في شهامة القائد الأنوف الذى لا يخاف الموت أو يرهب العذاب .

ولكن القرطاجنيين لم يستنيموا إلى الظفر ، ولم يصرفهم النصر عن أن يحترسوا من الرومان وأن يقيموا على الحذر منهم ، وكان في الرومان دأبٌ على الجهد وإصرار على الكفاح ذهب في الناس حينذاك مذهب الأمثال ، إذا أنشبو أظفارهم في عدو لم يفلتوه إلا هالكا ، وربما تواترت عليهم الهزائم وتهاوتهم المصائب فلا يزدادون على البلاء إلا شدة وإصراراً ولا يزالون يجيشون الجيش بعد الجيش يرمون به العدو حتى تنفذ قواه ويسلم لهم أمره . لهذا أخذ القرطاجنيون يقدرون أن الرومان لن يستكينوا لهذه المصيبة ، وأنهم دائبون على الجهد لا يهدأ لهم جنب إلا إذا أخذوا بثأرهم وعرفوا ألا طاقة لهم بقاء هؤلاء القوم ، وأحبوا أن يجتالوا للمقادير بحيلة يهربون بها من ملاحقتها إياهم .

وانتهى بهم الرأي إلى أن يستدعوا ذلك الشيخ ريجولوس من سجنه ، وعرضوا عليه الأمر وتباحثوا وإياه فيه ، حتى انتهوا معه إلى أن يُعقد الصلح بين الحيين ، وأن يكونا جارين بينهما تعاطف الجيران وصفاء الأصدقاء . ولم ير ريجولوس في ذلك بأساً ، فأقر القرطاجنيين على ما ذهبوا إليه من رأى ، ثم عرضوا عليه أن يوقع معهم تحالفاً باسم الرومان ، وسألوه أن يمضى بعد ذلك إلى أهله فيجتمع بشيوخ الكابيتول ، ولا يزال بهم حتى يروا الأمر على وجهه الذي رآته ويقروه . ولكن الشيخ أبى ذلك ، وأفهم القرطاجنيين أنه لن يسمح لنفسه بأن يستعمل الحيلة والمنطق في إقناع الرومان وإرغامهم على أمر قد لا تكون لهم فيه رغبة ، وأبى أن يتقيد بعهد قد يتاح له أداؤه وقد لا يتاح ، ثم طلب إلى القرطاجنيين أن يأذنوا له في أن يمضى إلى بلده فيعرض الأمر على أهله ثم يعود فيلقى إلى القرطاجنيين ما انتهى إليه جهده ، فأخذوا عليه العهد أن يعود إذا فرغ من مهمته ، وألا يكون ذلك حيلة منه لكى ينجو من أسره .

وكان القرطاجنيون قد قدّروا أن الرومان موافقون على الصلح على أى حال ، لا حباً منهم في السلام أو استكانة للهزيمة ، وإنما حفاظاً على حياة هذا الشيخ المهيب ، إذ لو رفضوا السلام وقرروا الحرب لكان معنى ذلك هلاك ريجولوس : سيعود إلى قرطاجنة يعلن رفض الرومان واستمرار الحرب ، فيعود إلى مكانه من الأسر وينزل به العذاب الأليم . حسب القرطاجنيون أن الرومان لن يفعلوا هذا أبداً ، وأن قلوبهم لن تذهب في التحجر

مذهب من يرسلون رجلاً من خيرة رجالهم إلى حتفه . كانت تلك حيلة بارعة من القرطاجنيين ، وكانت حرية أن تنطلي على الرومان .

وأخذ الرجل أهبه للرحيل ، وبارح قرطاجنة ، فلما كان بظاهاها رأى من عدة القرطاجنيين للحرب وأهبتهم لها ما أثار في نفسه شكا وأوجس في نفسه خيفة أن يكون القرطاجنيون يطلبون هذا الصلح ليستعدوا للحرب في مداه ، فانشى إلى قروى من أهل ريف قرطاجنة وسأله الخبر ، فأفضى إليه بأن القوم يدبرون هجوماً عاماً على إيطاليا ، وأنها أشهر لن تنقضى حتى يكون القرطاجنيون أصحاب الأمر في روما وأهلها .

هنالك أصبحت شكوك الرجل يقينا ، فانطلق إلى قومه غضبان أسفاً ، فلما اجتمع بأصحابه في الكايتول ، مضى يشرح لهم الأمر ويفيض في تفصيله ويحثهم على الاستعداد والأهبة حثاً شديداً . وعجب الرومان من أمره ، ولكنه مازال بهم حتى استمعوا إلى نصيحته وأسرعوا يتخذون الأهبة ، وبدأت قواهم تجتمع وجيوشهم تتأهب ، وعرضوا عليه أن يقود الجيش المهاجم فأبى وقال : « إنما أنا أسير ! » . وريع الرومان من قائلته تلك ، وفهموا مايعنى بها ، ومضوا يستوضحونه الأمر ، فأعلن إليهم أنه في الأسر مايزال ، لأنه وعد القرطاجنيين بأن يعود ، وأنه عائد لأنه أعطى « كلمة الشرف » وكلمة الشرف قيد لا يتحلل منه الرجل الشريف .

ريع الرومان حينما سمعوا حديث الشيخ ، وزاد روعهم حين رأوا الرجل يستعد للعودة إلى القرطاجنيين ليبلغهم نتيجة مسعاه ، ومضوا يبينون له أن القرطاجنيين لن يفلتوه من عذاب أليم لو نبأهم أنه أثار عليهم الرومان ، ولكنه أبى أن ينثنى ، وأصر على أن يعود ليفى بالعهد الذى أخذه على نفسه ، وكانت كلمته للذين أنقلوا عليه : « لقد حفظت على روما كرامتها ، فاسمحوا لى أن أحفظ على نفسى كرامتها » . هنالك لم يجد أصحابه وآله بدأ من أن يدعوه ينصرف إلى حيث يرغب ، واجتمعوا لتوديعه الوداع الأخير ، ولم يكن هنالك شك في أن الرجل كان في طريقه إلى الموت ، ولكنه كان يتسم ، كأنما الأمر الذى يسعى إليه يستدعى هذا الابتسام .

وكانت هذه التضحية - على هولها - صغيرة على همة هذا الرجل ، كان يؤكد لزوجيه وابنيه

أن الأمر جدُّ هين . إن هو إلا رجل أدى واجبه وبرَّ بوَعده ! وكل رجل حقيق بأن يؤدي واجبه نحو وطنه ويبر بوَعده ، أم حَسِب الناس أن الوعدَ لا يفى به صاحبه إلا إذا كان الوفاء هيناً سهلاً ؟ فليعلموا إذن أن الوعد يوفى به حتى في ظلال الموت !

مضى الرجل إلى قرطاجنة فاستقبله أهلها بالبشر والإيناس بحسبونه يحمل إليهم السلام ومضوا وإياه إلى مجلس حكامهم ليظهرهم على جلية الخبر ، فلما انتهى إليه نصح لهم مخلصاً أن يستعدوا للحرب ! فلما استوضحوه الأمر ، أفضى إليهم بما فعل كاملاً ، فنظر بعضهم إلى بعض عجباً من أمر هذا الرجل ، وحسبوه أول الأمر هازلاً ، فما يكون مثل هذا الكلام إلا هزلاً ، وما يبلغ رجل من العبت بنفسه مبلغ إسلامها إلى الجلالاد راضياً مطمئناً . ولكنهم لم يلبثوا أن استبانوا أن الرجل لا يقول إلا صدقاً ، وأنه ألَّب قومه عليهم ثم أقبل إليهم موفياً بوَعده لهم ! فعقدوا مجلساً للبحث في شأنه ، وظلوا يتشاورون في الأمر طول الليل ، وقد أعياهم اختيار عقوبة كافية لهذا الرجل الذي لا يخشى الموت .

فلما انتهوا من الرأى في أمره أقبلوا عليه في النزول الذي كان نازلاً فيه ، وكان حرّاً طليق القيد أثناء ذلك كله ، فوجدوه ملقى على الأرض وقد أغمد سيفه في قلبه وإلى جنبه بطاقة فيها : « .. حتى لا تأخذوني ولا تأخذوا سيفي .. ألا هل وفيت ! » .

obeikandi.com

مترادات ملك بنطس

١٢٠ - ٧٠ ق . م

يعجب به مؤرخو اليونان والرومان إعجاباً شديداً ، ويسرفون في وصفه والتمدح به وتفصيل أعماله إسرافاً بالغاً ، ويفيضون في الحديث عنه حتى لتلقاه كلما طالغت بلوتارك ، وتصادفه كلما استمعت إلى تيتوس ليفيوس ، ولا تكاد تشعب من أنبائه عند مارسيللوس أبيانوس ، بل هم يذهبون في الإعجاب به مذهباً يدفعهم إلى احتسابه إغريقياً ، وهو في أصله فارسي شرقي ، ويجعلونه بعد الإسكندر مثلاً للعبقريّة اليونانية التي تفيض بطولة وجلالاً .

كان مترادات فتى بارع الحسن ، أدرك من وفرة الرجولة وسحر الشباب ونعمة الفروسية ما حببه إلى الناس ورفع في نفوسهم إلى منازل الآلهة وأنصاف الآلهة . ارتقى العرش حين أشرف على الخامسة والعشرين ، فأقبلت شعوب آسيا الصغرى تسعى إليه طواعية وخوفاً ، واستقام له الملك العظيم في بُنطُس على البحر الأسود . وساعفه القدر وأيده الطموح فمضى يوسع بلاده في كل وجه ، وحارب الرومان فانتزع منهم آسيا الصغرى ، وأخضع ملكي كبادوكيا وبيثينيا ، وأقر عاصمة ملكه في بَرْجامُوس كبرى بلاد آسيا الصغرى وأكثرها حصانة، ثم بعث ابنه أريارات في جيش إلى تراقيا ومقدونية شمالي بلاد اليونان فأخضعهما ، وأرسل أرخيلالوس قائد أسطوله ليخضع بحر إيجه ، فجعل أثينا عاصمته ، ومضى يستعيد من الرومان ما فتحوه من بلاد اليونان جزءاً جزءاً .

وكان الناس في بلاد اليونان وفي آسيا الصغرى قد أبغضوا الرومان ونفروا من استبدادهم وتاقت نفوسهم إلى من يخلصهم منهم ، فلم يكذب يظهر مترادات حتى أقبل إليه اليونان وأهل آسيا مؤيدين ، وعمر جيشه بالجند من كل صنف ، وحفل أسطوله بالسفن والملاحين

واستقام ملكاً على شرقى البحر الأبيض ، ومضى يتأهب لصد الرومان إذا هم قصدوه ، وكان يعرف أن الرومان لابد فاعلين ، لأنهم كانوا قوماً محاريين لا يفرغ لهم جشع ولا تطمئن جنوبهم إلا على وساد الثرى فى ميادين الحروب ، ولكنه لم يكن مستوثقاً من أمر اليونان ، لأن حالهم كان قد ضعف وهبطت همتهم وأصبحوا لا يتأخرون عن بسط يد الطاعة لمن يقبل على بلادهم ظافراً ، لهذا جعل مثرادات مركز أعماله فى آسيا الصغرى ، وتحصن فى هضابها ووهادها ، ولبث ينتظر الرومان .

وتواترت الأخبار إلى روما ، وترددت الخطب فى الكابيتول بضرورة القضاء على مثرادات ، ولم يكن مثرادات يهدد روما ولا شيئاً من مصالحها ، ولكن بغمى الرومان كان يأبى أن يرتفع فى جو الكرامة إلى جانب رأسهم رأس ، ولو أقبل إليهم حليف صافى النفس يمد يد الصداقة لعدواً ذلك إساءة ، لأن أحداً من أهل الأرض لا ينبغى له أن ينهض لهم نداً ، وما يزالون يدبرون له الكيد ويتربصون به الدوائر ويلتمسون له الأخطاء حتى إذا جمعوا فى أيديهم ما يبرر لهم حربه ، نهضوا إليه كذئاب الفلاة لا يزالون يتناهشونه حتى يصرعوه ويسيروا على جسده وعلى رؤوسهم أكاليل الغار . .

ذلك أن وظائف القنصلية وما إليها كانت وفقاً على القادة المظرفين ، فكان كل طامع فى السلطان يتربح فرصة يقود فيها جيشاً يفتح به فتحاً ، فإذا عاد مظرفاً توجّه مجلس الشيوخ بأكاليل الغار ورشحه لمنصب القنصلية ولما نصب الحكومة فى الولايات . لهذا كان شباهم يتوثب شوقاً إلى الحرب والقتال ، وكانت الفرصة للفتح إذا سنحت تبادر إليها القائدان والثلاثة ، كل يبذل وسعه حتى يندب مجلس الشيوخ لها ، فإذا ظفر بالقيادة لم يرض بما دون النصر والظفر ، فربما حرق المدن بأهلها ، وربما أنزل المذابح بالأمين ، وربما استسلم له العدو فأبى إلا أن يحاربه ويتصر عليه ! .

لهذا لم تكذب فرصة حرب مثرادات حتى تبادر الظاهرون من القواد والطامعون فى السلطان يتنافسون فى الفوز بالانتداب للقيادة ، وكان أظهرهم ماريوس وسولاً ، وكانا قائدين طاغيتين فعلا بالدنيا وبأهلها وبروما نفسها الأفاعيل ، ومازال كل منهما يبذل جهده حتى فاز بها سولاً أعتى من رأى الرومان حتى الساعة من جبايرة الحروب : رجل

روى بلاد اليونان وآسيا الصغرى بدماء جنده ودماء أعدائه ، ولم يكفه هذا فعاد إلى بلاده يسومها خسفاً حتى قلب نظامها رأساً على عقب ، ونهض له خصمه القديم ماريوس يريد أن يصدّه عن الطغيان ويريد أن يبلغ منه ثأره على ما فاز عليه به من قيادة الحرب ضد مثرادات ، فلم يزالا يجتربان في إيطاليا حتى كاد الفناء يعفى عليها ، وانتصر سولاً وجثم بكلكله على صدر الرومان زماناً حتى أزاحت عنه سيوف المقاتلين .

* * *

سار سولاً لحرب مثرادات وهو لا يشك في أنه قاض عليه في بضعة أشهر ، وجعل يؤكد لأصحابه في مجلس الشيوخ أنه عائد بعد أسابيع ليقف إلى جانبهم ويؤيدهم في خصوماتهم الحزبية التي كانت في ذلك الحين أشد ما تكون انتقاداً وسعيراً ، ونزل بلاد اليونان وأخذ قواده يلقون قواد مثرادات ، وأحست دويلات اليونان الخوف من القائد الروماني ، فأخذت تنضم إليه ، فرأى مثرادات أن الخير في أن يسحب جنوده من بلاد اليونان وأن يركز جهده كله في آسيا الصغرى ، فلم تكذب بضعة شهور تنقضى حتى كان ميدان الحرب قد انتقل إلى جبال الأناضول وهادها .

وقد حاولت أثينا أن تقاوم سولاً وجنوده ، فكان جزاؤها أن ذبح من أهلها آلافاً وأجرى دماءهم أنهاراً ، وهدم عدداً من أقدم الهياكل وسواها بالتراب ، وأنزل بالناس من العسف والظلم ما لم تسمع به الإنسانية قبل ذلك أبداً ، حتى لقد أخذ أهل اليونان جميعاً رعب شامل ، وتقدم نفر من الشيوخ الأجلة فألقوا أنفسهم عند أقدام المنتصر يرجونه العفو عمن بقى من الناس ، فجعل يتباطأ في إجابة مطلبهم حتى يعطى جنوده فرصة أطول للقتل والتخريب ! ولم يكف يد جنده حتى أصبح البلد الخالد قاعاً صفصفاً .

وانتقلت الحرب إلى آسيا الصغرى ، وألقى مثرادات خير جنوده ، وساق عليهم سولاً خير من عنده ، وبدأ صراع رهيب لم تشهد بلاد آسية الغربية إلى ذلك الحين شبيهاً له ، واستبسل البنطيون من جند مثرادات واستبسل الرومان ، وأصبحت الحرب صراع فناء يهلك فيه كل يوم آلاف .

وبلغ من حدة المعارك أن الجيشين كانا إذا التقيا استحال الناس من الجانبين وحوشاً

ضارية لا يكاد يصرفهم عن القتال إلا هبوط الليل ، وقد حدث أثناء المعارك عند خايرونيا وأورخومينوس أن احترب الجمعان أسابيع دون الوصول إلى نتيجة ، فلما أقبل الليل ذات مرة قرر سولاً أن يقوم بعمل يضع للقتال حداً ، فطلب إلى جنده أن يقوموا بحفر خنادق على جانبي معسكرهم تؤمنهم من أن يؤخذوا من الجوانب إذا استعر القتال من غد ، فلما أقبل الصبح وهجم الأسيويون لم يكن الجند المكلفون بالحفر قد فرغوا ، فاكسحهم المهاجمون وقتلوا منهم عدداً عظيماً ، فربح جند سولا أنفسهم ومضوا يتهاربون حتى كادت تحقيق بهم الهزيمة ، فلم يكن من سولاً إلا أن ترجل عن فرسه وألقى بنفسه في معمعان المعركة وقال : « إنه لمجد لي أيها الرومان أن ألقى مصرعى هنا ! أما أنتم فإذا سألوكم أين تركتم قائدكم صريعاً فاذكروا اسم المكان ولا تنسوه ، إنه يسمى أورخومينوس ! » فلم يكده الجند يسمعون ذلك حتى كروا إلى الميدان وعادوا يقاتلون قتال المستميت ، حتى خلعوا ميمنة العدو عن مواضعها وقتلوا ديوجينيس ابن القائد أرخيلائوس ، واستبسل الجانبان حتى إن رماة مشرادات أعوزهم المكان ليرموا بسهامهم ، فحمل كل منهم أسهمه تحت ذراعه ومضى يضرب بها كأنها عصى أو حراب ، فلم ينته اليوم حتى هلكوا عن آخرهم ، وأصبح الميدان كله بركة دماء ، حتى ليحكى بلوتارك أن الناس كانوا إذا مروا بذلك الموضع بعد مائتي سنة رأوا بقايا جثث القتلى وآلات الحرب .

وأخذت قوات مشرادات تتهاوى ، وأخذ جنده يتفرون عنه ، وكان المدد لا ينقطع عن سولاً وجنوده عن طريق البحر ، في حين عاقت وهاد آسيا الصغرى وصول الأمداد لجنود مشرادات على هيئة منتظمة ، فأخذ جنده يتراجعون ، وأخذت المعركة الحاسمة على حدود بنطس نفسها تقترب .

* * *

فزعت دويلات آسيا الصغرى فزعاً شديداً ، وكان معظمها أتباعاً لمشرادات أو أحلافاً له وترامت إليها أخبار مذابح سولاً في بلاد اليونان ، وأبناء استبسال جنده في الحرب ، ورأوا أن أمر أصحابهم مشرادات إلى خذلان ، فبدأ الخوف يميل بهم نحو سولاً ، وأسرع نيكوميديس أكبر حلفاء مشرادات فمد يده للرومان محالفاً ، وأعقبه في ذلك نفر كبير من

الأمراء والحكام ، حتى كاد إيوان مثرادات أن يكون قاعاً صفتاً من الحلفاء والأعوان .

وتردد الخوف في نفسه بعد هذا الصراع الطويل ، وأيقن أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فأسرع يجمع الجند ويقوم الجيش حتى استقام له جيش عظيم زوده بآخر ما بقي له من المال ، وأخذ هذا الجيش الأخير بخطو في ثقة نحو سولاً . وكان هذا في اطمئنان الواثق وأمان العزيز ، فلم يكلف نفسه عناء السير ، وبعث قائده فلا كوس ليصفي الحساب مع مثرادات ، ولكنه روع حين حمل له نذير الشتم أشلاء فلا كوس ، ولم تلبث فلول الجيش أن انقلبت إليه هاربة تستغيث من شر ما أصابها على يد أمير بنطس ، فملاً نفسه الغضب واضطرم غيظاً ، وأقسم لا يعودن إلا بمثرادات نفسه يجره من ناصيته جراً ، ويربطه في عجلته ثم يعود به إلى روما يعدو على قدميه خلف العجلة حتى يبرى طول السير قدميه ، واقترب الفريقان وأشرفت الطليعة على الطليعة ، وأدرك القائد أن اليوم يوم تتقرر فيه المصائر ! .

واشتبك القتال ودام أياماً ، وامتدت الأيام أسابيع : يصبح الصباح فيثار النقع ويتعالى صخب السيوف وصياح الأبطال ، ويقبل المساء فترد السيوف إلى الأغهاد ويسود السكون ، حتى سئم أصحاب مثرادات وأحلافه هذه الحروب التي لا تنتهي ، وأدركهم شيء من السأم أو اليأس فمالوا إلى الصلح ، وحدثوا قائدهم فيه فأبى . واجتمعوا يتشاورون ، ثم انتهوا إلى أن يطلبوا من أميرهم قبول الصلح ، فإن أبى فهم في حل من طاعته وهم أحرار في إماراتهم يصرفونها كيف أرادوا . فلما رفض مثرادات ذلك انقلبوا ومدوا للرومان يداً ، وتقبلهم سولاً شاكرراً وأقرهم في أمانه وأظلمهم برعايته ، وما هي إلا شهور حتى أصبح مثرادات وحده لا يجد أنخاً ولا نصيراً .

* * *

كانوا ثمانية عاهدوا أنفسهم على ألا تسقط بنطس حتى يسقطوا ، وألا يسير الرومان إليها إلا على أجسادهم : أولهم مثرادات العظيم ، وتليه زوجه الوفية ، وخمسة من الفرسان والأبطال ، وكلب جليل يعدل ألوفاً ! وكيف لا يكون جليلاً وقد كان آخر من بقي حياً يدافع عن بنطس ؟ وكيف لا يكون جليلاً ، وقد وقف يحرس رفات سيده سبعة أيام لا يذوق

شيئاً ولا يميل إلى نوم ، يُعول إعوالم الشكلى وىصبر صبرَ الشهيد لا يتحرك مخافة أن تقرب
النسور جثمان سيدة الحبيب ؟ .

أرسل مثرادات إلى سولاً ينبئه بأن بنطس لن تسلم بغير حرب ، وأن دون أسوارها جيوشاً
عدادها ثمانية كل منها بائة ألف ، أى عدادها ثمانية ألف ! وضحك سولاً ما شاء له
الضحك ، وسخر قواده ما شاءت لهم السخرية ، ثم همّ سولاً فبعث ثمانية من صحبه فلم
يعودوا ، ثم ثمانين فلم يعودوا ، ثم مائة فلم يعودوا ! فكاد يصعق ، فهمّ وتقدم بنفسه ، فإذا
المدافعون عن البلد اثنان : مثرادات وكلبه ! وقد وقفا أمام الباب لا يكاد أحدهما يقربها حتى
يمزقها شرمزق ، هذا بسيفه وذاك بأنيابه ، فأمر سولاً بجحافلها فأقبلت ، فثبت الفتى لها
ثبات الجبال ، قابلها سيفاً بسيف وسهماً بسهم ، ثم اشتد الأوار وثار النقع ولم يعثر لمثرادات
على أثر ، واقتحم الرومان البلد وقضوا على من بقى فيه حياً .

كان سولاً يمر بعد أيام مع قواده فى معسكره ، فإذا صوت رهيب يترامى إلى أسماعهم
فينصتون إليه مروعين ، كان صوت وحش يرسل الصيحة تلو الصيحة فتشق سكون الليل
البهيم حتى لتروع الجيش بأسره . فلما أصبح الصباح أخذوا يقربون من مصدر الصوت ،
فإذا كلب ضخم فى أقصى العدو يعوى من أعماق نفسه باكياً معولاً ، وإذا هو قائم على
رفات يجرسها ولا يدع أحداً يقربها ، وإذا الراقد المسجى مثرادات تحوم حوله النسور
والكلب من دونها يدفعها ! ولم يجسر أحد على الاقتراب ، فقد كان الكلب شديداً تنبى
الضراوة فى عينيه ، لا يقرب منه إنسان إلا همّ به . هنالك جاشت نفس سولاً فبكى ،
والرجل الشجاع يبكى الرجل الشجاع !

وأدركته الحسرة ، وناله غم شديد ، ولبث يرقب الكلب فى ألم بالغ ، حتى أدرك الحيوان
المسكين التعب وبع صوته ، فرقد إلى جانب رفات سيدة ، وسكنت حركته ومات ! .

شيشيرون ينقذ روما

كان « لوكيوس كاتيلينا » فتى رومانيا عابثاً ، استهل حياته ينعم في أعطاف الغنى ، ويزهو في مطارف العز الوارف والنعمة السابقة ، فأقبل ينفق أيامه على موائد القمار ومجالس المترفين ، فلم يكد يمضى زمان قصير حتى كثر الدائتون ببابه ، وأملق واشتد عليه الطلب ، فلما استبدت به الحاجة ، اجتمع بنفر من أصحابه الذين أصابهم ما أصابه ، ونظروا في الأمر ، فلم يجدوا إلا سبيلاً واحداً يقبل عشرتهم ويرفع عنهم البلاء : فما عليهم إلا أن يجمعوا نفراً من العبيد وقوهم جيشاً يفتح روما ، ويستولى على ما عند أهلها وما في خزائنها من الأموال .

وبدأ الناس يتحدثون بما يدبره هذا الفتى وأصحابه من شر ، وتردد الحديث همساً من الخوف أو جهراً مع الرياء للمؤتمرين ؛ وتسامع القوم أن كاتيلينا يعدُّ جيشاً لا يحصيه عد ولا يطيقه أحد ، وأقبل الرواة من إثرؤزيّا - شمالي روما - يتحدثون بما بيئت للرومان من شر ، وما يدبرّ لشيوخهم من سوء المصير .

وتردد الخوف في جوانب الكابئول ، واستبدت الخشية بالشيوخ ، فانعقدت منهم الألسن ، وحرص كل منهم على ألا يتحدث عن كاتيلينا بسوء ، بل طفق نفر منهم يتودد إليه ويتملقه ، ولا يتحدث عنه إلا بكل خير ، بل بلغ الأمر أن أسرع ضعاف القلوب منهم فعقدوا معه الخناصر وبايعوه على هذا الذي يريد .

وكانت الأحوال العامة في الدولة الرومانية في ذلك الحين تسمح لمثل هذا الفتى بأن يفكر هذا التفكير ، وأن يتوقع لنفسه ولأصحابه التوفيق من ورائه ، فقد كان جو السياسة الرومانية مضطرباً تُغشيه السحب وتنوشه طلائع الأعاصير . كان يوليوس قيصر قائداً

ناشئاً يقود جيوشه قيادة موفقة في جبال الألب وفي غالة ، وكانت أخبار انتصاراته تروّج مجلس الشيوخ ، لأن أعضائه كانوا يعلمون علم اليقين أن قيصر سائر نحو الاستبداد بالأمر، وأنه حين يعود إلى روما وعلى رأسه هذه الأكليل كلها لن يقنع بمكانه في مجلس الشيوخ أو بإحدى الوظائف الكبرى ، وكان أنصاره والمثقفون حوله من أمثال رولوس وكاتيلينا ورايبوس لا يكفون عن الإلحاح على مجلس الشيوخ في إطلاق يده وبسط سلطانه.

وكان مجلس الشيوخ محبباً لا يعرف كيف يجتمى من سلطان هذا القائد الغلاب الطامح ، ثم إن مجلس الشيوخ كذلك لم يكن ليستغنى عن قيصر ، فلو أغمد هذا الرجل سيفه وكف عن العمل لتفرقت أملاك الرومان وثار الإيطاليون بأهل روما ، وصار الأمر إلى حرب أهلية ربما آذت البلاد أكثر مما آذتها حرب ماريوس وسولاً . وكانت حاجة المجلس شديدة إلى رجل قوى القلب جرىء النفس ، يستطيع أن يقاوم جشع الطامع دون أن يثير عداوته ويضع الدولة تحت رحمة ورحمة جنوده .

وكان هذا الرجل المأمول موجوداً ، ولكنه لم يكن طيباً سهلاً ، بل كانت له آراؤه ومراميه في عالم السياسة ، وكانت تلك الآراء تخيف الشيوخ كما كانت تخيفهم مطامع قيصر ، فقد كان هذا الرجل مازيوس توليوس كيكرو (شيشيرون) رجلاً ذكياً قادراً مثقفاً ، وكان ينحدر من أسرة متوسطة من سرة الريف الإيطالي . كان أصله من أرينوم موطن ماريوس قائد الإيطاليين في حربهم مع الأرستقراطية الرومانية ومنقذ إيطاليا من خطر الجرمان ، وكان الأرينيون - كغيرهم من سكان المقاطعات الإيطالية - ينكرون على أشرف اللاتين المتجمعين في روما ومجلس الشيوخ دعواهم في السيطرة والاستبداد بالأمر كله ، وكان بينهم وبين الإيطاليين صراع نستطيع أن نشبهه مثلاً بالصراع بين العرب وغير العرب في كيان الدولة الإسلامية .

وكان شيشيرون يمثل الطبقة العاملة من الزراع والتجار في المدن الإيطالية ، وكان لا فتاً يهاجم نبلاء الرومان ويحارب سلطانهم ، فكرهوه وألبوا عليه العامة من أهل روما ، وانتهى به الأمر إلى النفي من هذا البلد العظيم ، فذهب إلى بلده في أرينوم ، وأقام هناك يجمع صفوف الإيطاليين ويستعد لخوض المعركة مع الأشرف ليقرر لأبناء طبقة حقوقهم في

الحكم ، فلما كانت انتخابات سنة ٥٨ قبل الميلاد ارتفع إلى منصب القنصلية بمساعدة الإيطاليين ، وعاد إلى روما عودة المنصور المظفر ، وهو ينوي أن يكافح كفاح المستميت في سبيل مبادئ الجمهورية لا يكاد يخيفه إجماع الشيوخ على كراهته ، بل لا يكاد قيصر يخيفه بجيوشه .

وكان شيشيرون من أوسع الرومان ثقافة وأذكاهم عقلاً وأفصحهم لساناً ، كان قد ذهب في شبابه إلى أثينا - وكانت ما تزال موطنَ العلم والفلسفة - وتلمذ فيها على أنتيوخوس العسقلاني إمام عصره في المنطق والحكمة ، وكان سُفسطانيا يتحدث في صفاء الروح ببلاغة تأخذ بالألباب ، وقد أخذ شيشيرون بأسلوبه في الكلام وإن لم يؤخذ بأسلوبه في الفلسفة ، لأن قلبه ظل معلقاً بفلسفات أفلاطون كما دعا إليها أرسطو في اللبثيُوم ، وقد تعلقت نفسه بالفلسفة تعلقاً حدا به إلى التفكير في الانصراف إليها وترك السياسة وميدانها جملة ، ولكنه لم يكد يطمئن إلى الدرس حتى تسمع بمصرع سُولاً وما أعقب ذلك من الأحداث التي هزت كيان روما هزاً ، فقرر الرجوع إلى بلاده عاجلاً .

وكان قد انصرف أثناء مقامه في أثينا إلى شيء من الرياضة أكسبه شباباً ونشاطاً ، وكانت دروس أنتيوخوس قد أطلقت لسانه من عقاله وجعلته خطيباً ومحدثاً من طراز لم يسمع بمثله قبل ذلك أبداً ، حتى ليحكون أنه في عودته إلى روما مرّ برودس وحضر دروساً في البلاغة على أبولونيوس بن مؤلون ، فلما قضى في ذلك بعض الوقت أخذ يُجاوره ، وكان أبولونيوس لا يحسن اللاتينية ، فرجا شيشيرون أن يتحدث باليونانية ، فقَبِل شيشيرون وأخذ يتحدث بها في بلاغة عقدت ألسن الحاضرين ، فجعلوا يهتونه على ذلك ، إلا الأستاذ أبولونيوس ، فقد ظل واجماً برهة من الزمن ، ثم نظر إلى شيشيرون نظرة فيها حزن عميق ، وقال في تودة : « إنني لأمتدحك وأعجب بك يا شيشيرون ! يا لأسفى وحسرتى على بلاد الإغريق ! لأن هذه الفنون وتلك البلاغة التي هي كل ما بقى لها من مجدها الغابر ستنتقل إلى روما عن طريقك ! » .

وعاد إلى بلاده فلم تلبث أنظار الطبقة العاملة أن اتجهت إليه ، ولم يلبث أن نهض إلى الأعمال العامة وعين حاكماً على صقلية ، فأبدى من الكفاءة في ضبط العمال وكبح جماح السارقين والعاثين ما جعله معبود الأهلين ، وكان يبعث التقارير إلى مجلس الشيوخ ، وهو

يحسب أن أعضاء المجلس يكادون يتوثبون إعجاباً به وبأعماله . فلما انتهى العام عاد إلى روما وهو يحسب أنه سيجد الشعب في انتظاره ليستقبله استقبال الظافر ، وأن أعضاء مجلس الشيوخ سيسارعون لتحيته وأداء حق شكره ، فلما قرب من المدينة أراح في إقليم كمبانيا ، ولقيه هناك صاحبٌ له من أكثر الناس اتصالاً بالحياة العامة ، فسأله شيشيرون عن رأى الرومان في أعماله ، وكان يحسب أن الرجل سيحدثه عن إعجاب الرومان به ويمضى في ذلك ساعات لا يكاد يتوقف ! فما راعه إلا وصاحبه هذا يسأله : « وأين كنت والياً يا شيشيرون ؟ » ، وفوجيء الرجل بذلك ورائت الخيبة على نفسه ، وعرف أن تقاريره إلى مجلس الشيوخ لم يسمع بها أحد ، وأنها اختفت في صخب روما كما يغوص حجر يلقي به في الماء ، وامتلات نفسه بالمرارة التي يعرفها كل من شارك في السياسة وتعرض لعبائها المتلاطم .

وأخذ مكانه في مجلس الشيوخ يترقب فرصة يعرف الناس بها قدره ، ولم تلبث الأخبار أن تواترت من صقلية بسوء حكومة حاكمها الجديد فيريس ، وكان رجلاً شريراً سارقاً عسّف الأهلين ومضى فيهم كأسوأ ما يمضى الحكام في الناس ، وكان آمناً مطمئناً إلى مجلس الشيوخ بفضل ما كان يملأ به أفواه الأعضاء من الألفاظ والرشى ، فلما وصلت شكوى الأهلين من أفاعيله إلى ساحة المجلس أقبل يختال في مطارف الغرور وهو لا يشك في تبرئته . وبينما هو في خيالاته إذ بصوت شيشيرون يدوي كأنه الرعد ، فأوقف الرجل مكان المتهم ، ومضى يعدد آثامه في بلاغة متدفقة ، وكلما دفع الرجل عن نفسه تهمة بادره شيشيرون بما هو أشد منها ، وصاغ كلامه في أسلوب لاذع جعل الأعضاء يضحكون ، فلم تنته الجلسة إلا وقد لصق الحاكم السيء بالأرض ، وخرج وقد حُكم عليه بغرامة قاصمة للظهور ، وخرج الأعضاء هذه المرة ولا حديث لهم فعلاً غير شيشيرون ! وهكذا أرغم الأصم على السماع والنائم على اليقظة ، وأصبح اسم شيشيرون على كل شفة ، وسعى قيصر يخطب وده ، وبلغ أمانيه في بضعة شهور .

* * *

ثم لم تلبث أنباء ما كان كاتيلينا يدبره أن ملأت الأسماع ، وكان شيشيرون منصرفاً منذ

حين إلى أخبار صديقه بومبي في آسيا الصغرى ، مشتغلاً بأخبار النصر على ضفاف البحر الأسود عن شائعات الشر المقبل على ضفاف التبير ، فلم يلق بالآ أول الأمر إلى هذا الحديث الذي بدأ يشغل أصحابه الشيوخ ويصرفهم عن بومبي وحره مع مرادات ، ولكنه لم يلبث أن أصغى إلى أطراف من الحديث كانت تصله لماماً عن طريق عبيده ، أو مصادفة عن سبيل أصدقائه القناصل والمراقبين والشيوخ .

وأدرك شيشرون بصادق حسه أن المسألة ليست مجرد فكرة طائشة مرت بذهن لوكيوس كاتيلينا ، وإنما هي مؤامرة خطيرة ربما قضت على روما ومجدها قضاء مبرماً ، لأن هذا الرجل الشرير العايب قد اقتنص فرصة سنحت له وألقت بين يديه بزمام جمهور أهل روما ، ذلك أن عاملاً آخر من كبار العمال وقف أمام مجلس الشيوخ ليبرئ نفسه من تهمة التبديد ، وكان هذا الرجل - واسمه مانليوس - قريباً إلى قلوب العامة بسبب ما كان يفيض عليهم من المال وما كان يتيح لهم من أسباب اللهو والمسرّة ، وكان العوام يودون لو برئت ساحته ليمضى في عمله ولا ينقطع عنهم إكرامه ، لا يسألون بعد ذلك إن كان الكرم من ماله أم من مال الدولة . فلما وقف يستمع للتهمة لم يكن أقل ثقة في البراءة من فيرّس ، وتواترت عليه التهم من جانب الشيوخ ، وعجب شيشرون من ذلك الأمر ، لأن العهد بالشيوخ ألا يصل الحماس بهم لصالح الدولة هذا المبلغ ، ولم يلبث أن اكتشف أن الهجوم عليه تحامل مرجعه كراهة بومبي ، وكان بومبي صديقاً لشيشرون ، فلم يلبث هذا أن قام في قاعة المجلس يدافع عن الرجل ويرد عنه حملة المألين عليه . وهاجم النبلاء هجوماً عنيفاً وانتقد أعمالهم في كلام تردد في آذان الجمهور تردد السحر ، ونجا مانليوس مما كان يدبّر له ، وانهمز الأشراف المتربعون كالآلهة على مقاعد المجلس أحفظتهم على شيشرون ، وأثارت في نفوسهم الحقد ، ودفعتهم إلى التحدث في القضاء عليه والخلاص من شره جملة .

استشعر كاتيلينا أن الفرصة مناسبة ، فإن الخلاف قائم بين الشعب والأشراف ، والخصومة مستطيرة بين هؤلاء وبين شيشرون ، وبومبي غائب بجيوشه ، وليس هناك ما يرد عابثاً جريئاً عن عبث يدبره للدولة ويفيد في إنقاذه من هذه الظروف القائمة كلها ، ولكنه كان خائفاً من هذا الشيخ الجريء شيشرون ، الذي كان لا يدع مفسداً إلا وضعه موضع

الاثام ولم يفلته إلا بالعقوبة ، وكان هو - أى كاتيلينا - رجلاً سيئاً شريراً يتحدث الناس في روما عن سوء أفاعيله وعن مظاهر إسرافه وفساد خلقه ، وكانوا يحكون أنه يشتري ضمائر الناس بما يوسع عليهم وبما يُلطفهم به من طرائف ما ينهب ، وكان شيشيرون يكرمه ويحتقره ، فجعل الرجل يدبر خلاص نفسه ، وهداه الفكر إلى أن يعقد الخناصر مع طائفة من المفسدين أمثاله على أن يستعينوا بالعامه والعبيد ويقلبوا الدولة قلباً ، ويضعوا أيديهم على أموالها قبل أن يعود بومبي كما قدمنا .

وبدأ فرشح نفسه للقنصلية ، ورشح لزمالته في هذا المنصب الرفيع صديقاً له ضعيفاً يسمى جايوس أنطونيوس ، وقدّر هو وأصحابه أنه إذا وصل إلى القنصلية أطلق يديه وأيديهم في مال الدولة يفعلون به ما يشاءون ، وكان لا يشك في أن أحداً لا يجرؤ على تحديه بعد أن طارت الشائعات بأن وراءه من العبيد آلاف لن تتأخر عن اقتراس من تحدته نفسه بالتحدي ، ولكن شيشيرون لم يهرب شيئاً ، ودخل المعركة أمام هذا الرجل الشرير وفاز عليه فزاده ضعفاً ، وكان أنصار كاتيلينا قد أعدوا قوانين خطيرة من شأنها أن تضع مال الدولة تحت يد القنصلين يفعلان فيه ما يشاءون ، وكانوا يعولون في ذلك على وصول كاتيلينا وصاحبه إلى المنصبين الخطيرين ، واستشعر شيشيرون ذلك فمضى يخطب ويناقش حتى هدم هذه القوانين وقضى عليها قضاء مبرماً ، واطمأن إلى أن خطر هؤلاء القوم قد أبعده إلى حين .

ولقد تعلم الرومان في ذلك الحين عن شيشيرون دروساً كبرى : أولها أن الخطيب لا يكون بليغاً مبنياً إلا إذا تصدى لقضية عادلة ، لأن البلاغة لا تكون بلاغة إلا إذا كانت حقاً ، وأن إنساناً مهماً بلغ من الفصاحة لن يستطيع الدفاع عن قضية باطلة ؛ وثانيها أن الحق لا يغلب إذا عرف صاحبه كيف يتحدث عنه ؛ وثالثها أن الحاكم ينبغي أن يتحرى صالح الدولة فيؤيده دون أن يصرف عنايته إلى ترضى الناس واجتذاب قلوبهم ؛ ورابعها أن الإنسان إذا اشتبك في خصومة كان لزاماً عليه أن يحرص على ألا تبدر من لسانه بدوات تجرح كرامات الناس في غير موجب .

ورأى كاتيلينا وأصحابه أن شيشيرون سيضيع عليهم الفرصة التي عقدوا عليها

أحلامهم جميعاً ، وبلغتهم الأنباء أن بومبى - صديق شيشيرون - فى طريقه إلى روما ، فلم يبق أمامهم إلا التعجيل فى إنفاذ الشر الذى دبروا ، وانضمت إليهم فلول جيش سولاً المهزوم ، وكانوا طوائف من الشذوذ والسفاكين تفرقوا فى نواحي إيطاليا بعد هزيمة قائدهم ولبثوا ينتظرون فرصة تواتيهم لإنفاذ ما كانوا يملحون به من السفك والنهب ، فلم يكادوا يستشعرون ميل كاتيلينا إلى مثل ذلك حتى أسرع رؤساؤهم إلى روما وعقدوا معه الخناصر ، وبات الناس فى هذا البلد العظيم يُرْجفون بهول المصائب المقبلة ، وخذت الأنفاس وأسكت الخوف الألسن ، واحتاج الأمر إلى قلب قوى جرىء يدفع عن الناس البلاء .

هنا لم يتردد شيشيرون فى التحدى ، وذهب إلى مجلس الشيوخ ونادى كاتيلينا بأعلى صوته ، وسأله عن هذه الأراجيف التى تحوم حول اسمه ، فأجاب الرجل إجابة لم تدع إلى الشك فى نواياه سيلاً ، قال : « إذا رأيت جسدين أحدهما ضعيف مسلول وله رأس قوى ، والآخر ضخم قوى ولا رأس له ، فما الخطأ فى أن أنقل الرأس القوى من الجسد الضعيف إلى الجسد القوى ؟ » يريد بذلك أن مجلس الشيوخ ضعيف عاجز ولكنه يملك السلطة ، وأن الشعب قوى عظيم لا يملك منها شيئاً ، وأن علاج الأمر لا يكون إلا بنقل السلطان من مجلس الشيوخ إلى العوام . وفهم شيشيرون الخطر الذى يستتر وراء مثل هذا الكلام ، وكان أو أن الانتخابات للقنصلية قد أوشك ، فألى على نفسه أن يحول بين كاتيلينا وهذا المنصب ، وإن كلفه ذلك دمه ، ومازال يدعو ضده ويعرض نفسه للأخطار حتى صرف الناس عنه واستقر فى القنصلية رجلان آخران مأمونان فيهما خير وثقة .

بهذا اطمأن شيشيرون برهة من الزمان من ناحية كاتيلينا وأصحابه ، ولم يتفق هذه البرهة فى انتظار وتوقع ، بل عجل بالعمل فى يقظة وحزم ، لأن المتآمرين كانوا جادين فى العمل لا يكاد يصرّفهم عنه شيء : كان جنودهم يتجمعون على عجل فى إتروريا شمالى روما ، وكانوا يقسمون أنفسهم فرقاً لكل منها عملها ، وكان لستولوس شريك كاتيلينا والمتآمر معه قد دبر خطة رهيبه للقضاء على روما وأهلها ومجلس الشيوخ خاصة ، وكان قد اختزن أسلحة وعتاداً وكبريتاً وأعدّها لليلة الموعودة ، وكان يقدر أنه إذا أقبلت هذه الليلة أشعلت الحرائق دفعة واحدة فى نواحي البلد كلها ووقف نفر من المتآمرين على ضفاف التيرب يمنعون الناس من أخذ الماء لإطفاء النار ، ثم تمضى فرق من الجند إلى منازل الشيوخ

فتقتلهم واحداً واحداً مع أسرهم ، لا يبقون إلا على أولاد بومبي ، لا رحمة بهم وإنما لكي يحتفظ المتآمرون بهم رهائن لإرغام بومبي على السكوت ؛ فإذا تم هذا فقد أصبحت الدولة وخزائن مالها بيد كاتيلينا ولتولوس وأصحابها ، ولم يعد أحد بعد ذلك يجرؤ على رفع هامته، وانتهى ذلك الملك العريض إلى هذه الطغمة الباغية تفعل به ما تريد .

وانتشرت الأراجيف وسادت البلد كله رهبة مروعة ، وغدا الناس إذا ذكروا كاتيلينا لم يتحدثوا إلا حديث الهمس ، بل سعى بعضهم إلى المتآمرين يريدون أن يشتروا أنفسهم بشيء من نفاق . ولم ينقطع كاتيلينا أثناء ذلك عن حضور مجلس الشيوخ ، ولكنه كان إذا حضر أقبل مزهواً رافع الرأس يحيط به الحواشى والأتباع . وكان شيشيرون يشعر بحرج الموقف ولكنه لم يكن يستطيع فعل شيء ، لأنه لم يكن ليملك وثيقة واحدة تثبت جريمة المتآمرين ، فتركهم وظل يتربص بهم الدوائر . واحترز هو لنفسه ، فكان لا يسير إلا في ركب من الحراس والأعوان ، ومضى يدس العيون ويرصد الأرصاء حتى تجمعت لديه أسباب اتهام ، ثم وافاه بعض أنصاره من أمثال ماركوس كراسوس وماركوس مارسيللوس، وسيبيو متلوس برسائل تثبت جناية المتآمرين إثباتاً لا يرقى إليه الشك ، فلما استوثق مما بيده أحس أن اللحظة الحاسمة قد اقتربت ، وأنه لا بد فاعل شيئاً وإلا دهمه المتآمرون في سواد ليل . ومضى ذات يوم إلى الكابيتول وجعل يفتح أصحابه من الشيوخ ، فوجد منهم خوفاً وإشفاقاً ، لأن الأنباء كانت قد تواترت بأن كاتيلينا وأصحابه قد أكملوا عدتهم ، وأن أياماً لن تنقضى حتى يصبح المتآمرون سادة هذا الملك الواسع وسادة الكابيتول وسادة شيشيرون !.

وعاد شيشيرون إلى داره في المساء متعباً مكدوداً ، به من الخوف على روما أكبر مما به من الإشفاق على نفسه ، ولبث ليله يتدبر الأمر فلا يظفر بما يخرج به من ذلك البلاء المحيق ، فما حيلته أمام هذا الفتى القوى الذى أخرس الألسن ونشر الخوف ؟ وماذا تراه صانعاً إذا أقبلت جماعات الجند المتآمر ؟ أهو مصبح من غده منطلقاً إلى إنتروريا ليبيع كاتيلينا ويبدل له الطاعة وينجو بنفسه من الهلكة ؟ أم تراه يجمع متاعه فيرحل عن البلد حتى يأذن الله ويعود صديقه بومبي ؟ ترى كيف لقاؤه آلهة الرومان إن هو هرب هذا الهرب المعيب

وتخلى عن واجبه ساعة الخطر ؟ وكيف لقاؤه الأجداد لو فرط في هذا التراث الذى خلفوه له
واتتمنوه عليه ؟ .

فإذا كان الغد فقد أقبل الشيوخ يتحدثون إلى شيشيرون ويرجونه أن ينصرف عن هذا
الذى يبغى من معارضة كاتيلينا ، وألا يرفع رأسه أمامه ، وبلغوه أنه قد أقسم لياخذون
أعداءه أخذ عزيز مقتدر ، وليرمينهم للسباع أو للحيتان ، ولينظمنهم في ركابه صفاً
مصفدين في الحديد يركبهم الناس بالسخرية والمجانة ويركبهم الجلادون بالسياط .
ولكنه أبى ، وظل ساعات طويلة منظوياً على نفسه شارد الفكر لا يكاد يهتدى إلى
شئ ، وأيس أصحابه منه إذ استوثقوا أنه ثابت لم يثن عما عزم عليه ، وأنه لا يزال يدبر
حتف نفسه ، فمضوا عنه وأخذوا خيله وعربته حتى لا يجد ما يركبه إذا هو هم بالمسير إلى
الكابيتول ، وكان يسكن في ضاحية قريبة من روما .

واقرب الليل وأقبل الخطر ، وأمر الرجل بعربته فلم يسرع الخدم بها إليه ، وافتقد خيوله
فلم يظفر بها ، فلم يتردد رغم ذلك في أن ينطلق على قدميه مشتملاً بشملته البيضاء حتى
أقبل على الكابيتول في أوائل المساء ، وكان المتآمرون يلقونه في الطريق فلا يزيد على أن ينظر
إليهم بغير اكتراث . وأقبل على صحن الكابيتول فإذا الشيوخ جالسون يحدث بعضهم
بعضاً ويعزى بعضهم بعضاً ، فلما بصروا به مقبلاً أدركوا أن الرجل لم يأت لهين ، وإنما هو
يريد أمراً تنبىء عنه حركات يديه وتتحدث به أسارير وجهه .

لم يأخذ مكانه حيث كان ينبغي له أن يجلس ، بل مضى يدير البصر في جوانب القاعة
كمن يبحث عن شئ ، فلم يلبث بصره أن صافح كاتيلينا وسرعان ما اتجه إليه في خطى
متزنة وجنان ثابت ، وقد تسمّر نظره في وجه الخائن حتى ملأ بالرعب نفسه ، فإذا كان على
خطوات منه فقد أخرج من شملته الأوراق التى كان أعدها ، وانطلق صوته يتردد في
جوانب القاعة منادياً الخائن باسمه ، داعياً إياه إلى الوقوف موقف المتهم .

وتناول مطارف الخائن فانتزعها عنه فجمد الدم في عروقه ، وقد كان - ككل الخونة -
جباناً هلوغ النفس ، يكفى أن تواجهه مرة في حزم حتى تتفرق نفسه ، ولقد كان قبل هذه
اللحظة قوياً عزيزاً بجنده وصحبه ، أما وهو وحيد أمام شيشيرون الرهيب فهو أذل من
جرو شرد عن أهله .

ثم انثنى إلى الشيوخ فإذا هم وقوف مما بهم من خوف ، فاعتلى المنبر وأنشأ يخطب خطابه الذى لا يكاد إنسان يقرؤه حتى تثور فى نفسه أعمق الإحساسات وأرفع المشاعر ، والذى يصفه بلوتارخوس بأن أوله من ذهب وآخره من نار ! وجَّه التهمة فى تودة وحامسة ، وأتبعها بالأسانيد فى دقة وبلاغة ، ولم يفرغ منها حتى كان الخائن قد شعر بأنه مجرم حقاً ، وأنه الآن فى قبضة الشيوخ يستطيعون أن يحاكموه ويأخذوه بجريرته ، ولم يعد له ملجأ إلا الفرار إلى جنده المتجمع فى إتروريا عله يستطيع شيئاً . وملكت الحيرة أصحاب كاتيلينا فلم يستبينوا للصواب وجهاً ولا للفكر سبيلاً ، وإنما أخذهم شيشيرون بحديثه أخذاً وسحروهم بجرأته سحراً فتسارعوا يطلبون النجاة .

ظل الرجل يتحدث ثلاث ساعات ، وختم حديثه بين هتاف الشيوخ وصياح الشعب الذى انكشف عنه الخوف وزايله الاضطراب ، والأمم يعوزها فى لحظات الخطر مثل هذا الصوت ، بيدد ما حولها من ضباب الشكوك ، ويخرج بها من ظلمات المخاوف ، ويجمع القلوب المتفرقة إلى لواء واحد ، والقلوب إذا اجتمعت أنس بعضها إلى بعض واستشعرت الشجاعة وتطلعت إلى العمل . فأخذ الشعب يطالب بدم الخونة ، ولكن شيشيرون وجد أن الحكمة تقضى بأن يترث فلا يسدد ضرباته هلى عجل مخافة أن يروع الجند النائر المتجمع فى إتروريا فلا يلبث أن يتثال على العاصمة اثنيالا خطراً ، ثم إنه لا يملك الحق فى القبض على كاتيلينا دون محاكمة أمام محكمة خاصة ، وهو لم يفعل فى مجلس الشيوخ إلا مجرد توجيه التهمة ، وعلى المجلس بعد ذلك أن يقرر ما يشاء ، وحسب كاتيلينا مالمقى الساعة ، فلن يلبث المجلس أن يوجه إليه التهمة ويدعوه إلى المحاكمة ، وقد نهض الشعب الآن واحترز لنفسه وارتدت إليه شجاعته ، ولم يعد جند المتأمرين ليستطيع أن يفجأهم على غرة .

وقام كاتيلينا يتعثر فى أذيال الخيبة ، وأخذ طريقه إلى خارج المجلس ، وأقبل الشيوخ على شيشيرون يهتونه بما أصاب من توفيق ، ويسألونه ألا ينصرف وحيداً مخافة أن يصيبه أحد من الخونة بضر . وكان كاتيلينا قد أرسد للرجل من يقتله فيريجه منه ، وصف له على جوانب الطريق جمعاً من القتلة متحفزين ليقضوا فيه قضاءهم .

ولكن الخناجر لم تكن لتخيف شيشيرون ، فاشتمل بشملته وخرج إلى الطريق يحيط به أصحابه وحراسه ، فلقية المؤتمرون وجعلوا ينظرون إليه فى غضب ، فلم يكن ليزيد على أن

يبتسم ، ومضى في طريقه فإذا المتآمرون أول الهاتفين له وأول المكبرين لما بذل من نفسه لقاء وطنه العزيز . لقد فتح كلام شيشيرون عيونهم على الخطر المحقق ، وبصرهم بجناية ما كانوا يدبّرون ، وكان معظمهم سدّجاً خدعهم ذلك الخائن التعيس بما منّاهم من خير كثير، وكانوا يسيئون الظن بمجلس الشيوخ ، يحسبون أن أعضاءه لا يجتمعون على خير للناس ، وأن الخير في الخلاص منهم ، فلما تحدث شيشيرون انجلى الحق أمام الأعين وارتد الهدى إلى النفوس .

ومضى الرجل إلى داره فألقى الرسل قد سبقوه بأخبار الحرب في آسيا ، وفيها أن صديقه بومبي يسأله شيئاً يذكره به فلم يجد إلا شملة كاتيلينا ، وكانت لا تزال في يده ! فدفع بها إلى الرسل وهو يقول : « قولوا له إننا اشترينا روما بهذه ! » . وكان على حق فيما قال ، فلو لم يجزؤ شيشيرون على التقدم نحو المتآمر ويتزع ثوبه الذي كان يتدثر به لما جرؤ أحد على القيام في وجهه ، وكان قد أرعب القلوب بتدبيره كما رأينا ، فكانت هذه الخطوات التي سارها شيشيرون نحو هذا الرجل خطوات نحو الموت ، إذ لم يكن أحد ليعرف ما دبر كاتيلينا ولا ما يطوى تحت ثيابه ، وقد فجأه شيشيرون فجأة فرقت عزمه ، ثم عاجله بذلك الخطاب الذي فضح أمره ونشر على الناس صفحته السوداء ، فلم يبق حوله رجل واحد في نفسه من النخوة جانب إلا انقلب عليه ، وصغر كاتيلينا وأصحابه في نفوسهم ، واستيقظت حمية الناس ، واستعدوا للقضاء عليهم .

وهذا ما وقع : فرّ كاتيلينا إلى جنده وبعثت الحكومة إليه من حاربه حتى هزمه وقضى على من معه ، وقُبض على من بقى من أصحابه في روما وقتلوا ، وخلص البلد من شرهم .
لقد أنقذ شيشيرون وطنه بما أبدى من الهمة والنخوة ، وقد لقبه الرومان فيما بعد بأبي الوطن ، وكان بذلك حقيقاً .